

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة بعد الخمسةائة

ذكر ما جرى من الافرنج لعنهم الله:

وقال بيبرس: وفي هذه السنة ملك الافرنج مدينة صيدا من ساحل الشام في ربيع الآخر، وكان ذلك بالأمان، وقال بيبرس: وسبب ذلك انه وصل في البحر الى الشام ستون مركبا للافرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج الى بيت المقدس، ويغزو بزعمه المسلمين، فاجتمع بهم بغدوين صاحب القدس، وتقررت القاعدة بينهم ان يقصدوا بلاد الاسلام، فرحلا من القدس، ونزلا على مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر، فحاصروها وضايقوها برا وبحرا، وكان الاسطول المصري مقيا على صور، فلم يقدروا على انجادهم، فعمل الفرنج برجا من خشب واحكموه وجعلوا عليه مامع من الحجارة والنار، وزحفوا فلما عاين أهل البلد ذلك ضعفت قلوبهم واشفقوا ان يصيبهم ما أصاب أهل بيروت وغيرها، فأرسلوا قاضيتها ومعه جماعة من شيوخها إلى الافرنج وطلبوا الامان، فامنهم ملكهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذين عندهم، ومن أراد المقام يقيم، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعونه، وحلف لهم على ذلك، وخرج الوالي وجماعة كبيرة من أعيان البلد في العشرين من جمادى الاولى، فوصلوا دمشق، وأقام بالمدينة خلق كبير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما، ورحل عنها الى القدس، ثم عاد الى صيدا فقرر عليهم عشرين ألف دينار، وأقرهم في بلدتهم.

وفي هذه السنة أيضا سار صاحب أنطاكية مع من اجتمع إليه من الافرنج إلى الأثارب، وهو بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم، ثم ملكوها بالسيف، وقتلوا من أهلها ألفي رجل، وأسروا الباقين، ثم

ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى على أهلها ماجرى على أهل الأثارب، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوها وقد أخلاهما أهلها، فعادوا عنها، وصالح الملك رضوان صاحب حلب الأفرنج على ثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الأفرنج، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم، فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار.

وفيها غدر بغدوين صاحب القدس ونزل طبرية، وخرج طغتكين صاحب دمشق فنزل على رأس الماء، ثم استقر الأمر على أن يكون ماكان من البلاد مناصفة.

وفي تاريخ بيبرس: لما جرى ما ذكرنا من الأفرنج عظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا بأن الفرنج يستولون على سائر الشام لعدم المحامي عنهم، فشرع أهل البلاد الإسلامية من الشام في الهدنة معهم، فاستنع الأفرنج الأعلى قطيعة يأخذونها إلى مدة معلومة يسيرة أو إلى الحصاد، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وخيول وثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، فخرجت مركب تجار من مصر، فلما أقلعت خرج عليها مراكب الأفرنج، وأخذوا البضائع وأسروا التجار، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد يستنفرون الناس على الأفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بتجهيز العساكر للجهاد، وأرسل من دار الخليفة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد، فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوا عليه، ودخلوا الجامع

وكسروا الشباك، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة، وأرسل الخليفة إلى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورقعه، فقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعود مع الأمير مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الأفرنج.

وفي المرآة: وفي سنة أربع وخمسة مائة جهز السلطان محمد شاه العساكر إلى الشام لقتال الأفرنج. منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الأفرنج.

وفي المرآة: وفي سنة أربع وخمسة مائة جهز السلطان محمد شاه العساكر لقتال الأفرنج، منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمديل صاحب مراغة، والأمير سقمان القطبي صاحب ديار بكر، والأمير ألبى والأمير زكي ابنا برسق، والأمير ايلغازي صاحب ماردين، فاجتمعوا في حران، وكتب إليهم ابن منقذ صاحب شيزر وعرفهم أن طنكريد صاحب انطاكية قد نزل بأرض شيزر وشرع في بناء تل في مقابل شيزر، ويريد أن يبنيه حصناً، فقطعوا الفرات ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان، فوصل وهو مريض؛ اختلفت آراؤهم، ومرض سقمان وطمع أحمديل في بلاده، فعادوا عن تل باشر إلى حلب، وعاثوا في البلاد من أعمال حلب، وفعلوا أقبح من فعل الأفرنج، وتوقعوا خروج الملك رضوان صاحب حلب إليهم، أو خدمة يبعثها إليهم، فلم يلتفت وأغلق أبواب حلب، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، واستعد للقتال، وقد كانوا لما قطعوا الفرات كاتبوا طغتكين صاحب دمشق بالوصول إليهم ليدبروا الأمور، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك، فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماة ورفنية، وسار في جمع كثيف طلباً للجهاد، فوصل إليهم على حلب، فسروا بوصولهم، وقويت

نفوسهم، فلم يرمهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد، وأما سقمان فعاد الى بلاده ومات في طريقه قبل وصوله في الطريق الى الفرات، وأما البرسقي فكان به نقرس فحمل في حفة ولاقول له ولافعل، وأما أحمديل فإن عزمه قد قوي على العود لأجل بلاد سقمان وطمعه في اقطاعه يأخذه من السلطان.

فقال طغتكين لأتابك: ارحلوا الى المعرة، فرحلوا على كره، فقال: انزلوا على طرابلس، فتوقفوا ثم تسللوا وتفرقوا تفرق أيدي سبأ، ولم يبق منهم سوى شرف الدين مودود، وكان مصافيا لأتابك طغتكين مصافاة صدق، فنزلا على العاصي، وكان الأفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم، فلما تفرق المسلمون رجعوا وصاروا يدا واحدة على الاسلام، ونزل ابن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما، وحمل إليهما، وجاء الأفرنج فنزلوا على تل معشر مقابل شيزر لينوا عليه حصنا، ونازلهم طغتكين ومودود، وطمع الترك وتخطفوه، ومنعوا احدا منهم ان يخرج من خيمته، وقتلوا وأسروا، فلما رأوا أحوالهم ناقصة انكفأوا راجعين الى انطاكية وطرابلس والترك في آثارهم قتلا وأسرا، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود صاحب الموصل.

وذكر بيبرس في تاريخه اجتماع من ذكرناهم من الأمراء أصحاب البلاد وعبورهم من الفرات في سنة خمس وخمسة، وقال: لما اجتمعوا ساروا الى بلد شبختان ففتحوا عدة حصون من بلاد الأفرنج وقتلوا من بها منهم، وحصروا مدينة الرها مدة، ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها، وسبب ذلك ان الأفرنج اجتمع فارسهم وراجلهم وساروا ليعبروا الفرات، ويمنعوا الرها من المسلمين، فلما بلغوا الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يتقدموا، وبلغ المسلمين ذلك، فرحلوا الى حران ليعبر الأفرنج الفرات، فلما عبروا ووصلوا إلى الرها ومعهم الميرة والذخائر، فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن أشرفت على ان تؤخذ، وأخذوا منها كل من عجز

ورجعوا فعبروا الفرات الى الجانب الشامي، وطرقوا بلاد حلب فنهبوا وأفسدوا فيها وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعود الافرنج عن الرها الى الفرات، رجعوا الى الرها وحاصروها، فرأوا سورها محكما، وقد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، فلم يجدوا فيها مطمعا، ونزلوا على تل باشر، فلم ينالوا منها غرضا، ورحلوا الى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ومرض الامير سقمان وتوفي في بالس فحملوه في تابوت إلى بلادهم، فقصدتهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحملوا تابوته في القلب وقتلوا فانهمز ايلغازي وغنموا ما معه، وأراد الأمير أحمديل أن يطلب من السلطان ما كان لسقمان، ولما سمع الافرنج تفرق عساكر السلطان وابن منقذ صاحب شيزر، فسار الى مودود وطختكين، وهون عليهما أمر الافرنج وحرصهما على الجهاد، فرحلا الى شيزر، ونزلا عليها بالقرب منهم، وضيّقوا على الافرنج الميرة ولزومهم بالقتال، والأفرنج يحفظون نفوسهم، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أرامية وتحصنوا فيها، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوهم في ساقتهم، وعادوا الى شيزر.

وفي هذه السنة ايضا نزل الافرنج مدينة صور، واجتمعت عساكرهم عليها عندما تفرقت العساكر الاسلامية، وساروا اليها مع بغدوين صاحب القدس، ونازلوها وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، وألصقوا أحدها بسور البلد، وكانت صور للأمر بأحكام الله صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الاعز، فأحضر أهل البلد وسألهم في حيلة يدفع بها شر الابراج، فقام شيخ من طرابلس وضمن احراقها، فعمد الى ألف رجل فألبسهم السلاح، ودفع الى كل واحد منهم حزمة حطب، فقاتلوا الافرنج حتى وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة، فالقى الحطب من جهاته، والقى فيه

النار، ثم خاف ان يشتغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار ليتخلصوا، فرماهم بجرار مملوءة من العذرة كان أعدها لهم، فلما سقطت عليهم اشتغلوا بياناهم من بين الروائح، فتمكنت النار منه، فهلك كل من به الا القليل، وأخذ المسلمون منه ماقدروا عليه بالكلايب، ثم أخذ قففا كبارا ملاءها بالحطب المسقي بالنفط والزفت، والزيت والكتان والكبريت، فرماهم بسبعين سلة منها، فأحرق البرجين الآخرين، ثم ان أهل صور حفروا سراديب تحت الارض ليسقط فيها الفرنج اذا زحفوا اليهم، فاستامن الى الافرنج من أهل البلد نفر من المسلمين واعلموهم بما عملوا فحذروا.

وأرسل اهل البلد الى اتابك طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبون ان يسلموا اليه البلد، فسار في عسكره الى نواحي بانياس، وسير إليهم نجدة مائتي فارس، فدخلوا البلد، فامتنع من فيه بهم واشتد القتال من الافرنج خوفا من النجدات، وفني النفط، وظفروا بشيء منه في شرف من الارض لا يعلم من خزنه.

ثم إن عز الملك صاحب صور أرسل الى طغتكين ليكثر من تجنيد الرجال ويقصدهم ليملك البلد، فأرسل طغتكين طائرا فيه رقعة يعلمه بوصول المال، ويأمره ان يقيم بمكان ذكره ليجيء الرجال إليه، فسقط الطائر على مركب للفرنج، فأخذه رجلاان: مسلم وأفرنجي، فقال المسلم: نرسله لعل ان يكون فيه فرج لهم، فلم يمكنه الافرنجي من ارساله وحمله الى الملك بغدوين، فلما وقف عليه سير مركبا الى المكان الذي ذكره طغتكين، وفيه جماعة من المسلمين الذين استأمنوا إليه من صور، فوصل إليهم العسكر وكلموهم بالعربي، فلم ينكروهم، فأخذوهم أسرى، وحملوهم الى الافرنج فقتلوهم وطمعوا في أهلها.

## ذكر بقية الحوادث:

منها أن شمس الخلافة نائب عسقلان مات في هذه السنة، وسبب ذلك أن شمس الخلافة كان نائباً بعسقلان من جهة الأمر بأحكام الله، خليفة مصر، وكان الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش رتبته فيها، فلما كان في هذه السنة استولت الافرنج على البلاد اولاً فاولاً، فخاف منهم النائب شمس الخلافة، فراسل بغدوين صاحب القدس، وأهدى إليه هدايا وهادنه وامتنع من تحكم المصريين عليه الا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك، فوصلت الاخبار الى مصر بذلك فجهاز جيشاً وأمره سرا ان يقبض عليه إذا نزل إليه، وأمره ان يقول: إنه تجهز للغزاة ويعلمه الحال، فلما وصل الجيش إليه امتنع من الخروج وجاهر بالعصيان، فلما علم الأفضل امتناعه أرسل إليه يطيب قلبه، وأقره على عمله، فلم يزل على هذه الحال، وأنكر أمره أهل البلد، فوثبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر، ونهبوا داره، وأرسلوا إلى الأفضل بصورة الحال فشكرهم على ذلك، وأرسل واليا عليهم عوضه، ووصاه بالرفق بهم والاحسان إليهم، فزال ماكانوا يخافونه.

ومنها أنه ورد رسول ملك الروم إلى السلطان محمد يستنفره على الافرنج ويحيشه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصولهم قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تستحي ان يكون ملك الروم اكثر حمية للاسلام منك حتى أرسل إليك في جهاد الافرنج؟ وكانوا يجرضونه بهذا القول ومثله.....

## ذكر من توفي فيها من الاعيان

الأمير سقمان.. ويقال له سقمان أيضاً بالكاف موضع القاف - بن أرتق ، صاحب ديار بكر وخلاط، قد ذكرنا أنه مات في بالس عند

رجوعه من بلاد حلب الى بلاده، وكان قد مرض ومات فيها، فحمل  
تابوته الى خلاط ودفن بها، وقيل دفن في ميفارقين، وكان ملكا عادلا  
مجاهدا خيرا، وقيل مات في ميفارقين ودفن بها، والله أعلم، وكان أبوه  
أرتق مات بالقدس.

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة بعد الخمسة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب البلاد على حالهم والعساكر السلطانية في بلاد الشام لأجل قتال الأفرنج صحبة الأمير مودود، صاحب الموصل، وجرى لهم ما ذكرناه في السنة الماضية، وكانوا قد تفرقوا كما ذكرنا.

وكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها، وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق، وهو للفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل من كان فيه، وعاد إلى الأفرنج الذين على صور، وكانت الميرة تقطع عنهم في البر، فاحضروها في البحر، وخذقوا عليهم، ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا، وأغار على ظاهرها، وقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر، والفرنج يلازمون قتالهم، وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات، فخاف الأفرنج أن يستولي طغتكين على غلات بلادهم، فساروا عن البلد إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين إليه، وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها، ثم أصلحوا ما تشعث من سورهم وخذقهم، وكان الأفرنج قد طموه.

وفي المرأة: وفي سنة خمس وخمسة "جمع بغدوين وحشد لقصد صور، فكتب إليها وأهلها إلى أتاك طغتكين يستنجدونه ويسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الأفرنج لأنهم أيسوا من نصرته أهل مصر، فبعث إليهم أتاك الفرسان والرجالة وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فقطع أشجارها وقتلها أياما وعاد خاسرا وخرج طغتكين من دمشق وخيم ببانياس، وجهاز الخيالة والرجال إلى صور نجدة، فلم يقدروا على الدخول، فسار إلى السواد ونزل على الحبيس

وهو حصن عظيم وحاصره وفتحه عنوة، وقتل من فيه، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور، وزحف إليهم أتابك ليشغلهم عن صور، فخذقوا عليهم وهجم الشتاء، ولم يبالي الأفرنج لانهم كانوا في ارض رملة والمسلمون في ارض وعرة، وكانت المادة تصل إلى الأفرنج من صيدا، فسار إليها أتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية، وغرق المراكب، ومع هذا فإنه يواصل أهل صور المكاتبه ويقوي قلوبهم، وعمل الأفرنج برجين عظيمين، وزحفوا بها الى السور، وكان طول البرج الكبير زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير نيفا وأربعين ذراعاً، وزحفوا اول يوم من رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران لحريق البرجين، ورموا بها، فنزلت النار، فهبت الريح فأحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير، فأطفأها الأفرنج، وأشرف أهل البلد على الهلاك، فتصدر شخص من المسلمين وتحيل في حريق البرج فاحترق وخرج المسلمون، فأخذوا منه من الآلات والأسلحة ما لا توصف (كثرت) فحيثئذ وقع يأس للفرنج فرحلوا وأحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعلوفات وغيرها، وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلد ولاوفوا له، فقال: أنا مافعلت مافعلت إلا لله تعالى، لالرغبة في حصن ولامال، ومتى دهمكم أجبتكم بنفسى ورجالي، وكان من سعاده أنهم لم يسلموا إليه، لانه كان عاجزا عن حفظ صور ودمشق، وصور ما كان لهم بد من أخذها، ورحل عنها.

وذكر في المرآة أيضاً ان أهل صور لما كتبوا إلى طغتكين بتسليم البلد إليه من شدة ما قاسوا من الحصار والقتال وعدم نصره أهل مصر، وكان والي صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي، فجاء رسوهم إلى بانياس، وواليتها سيف الدين مسعود فأخبره، فسار مسعود معه إلى دمشق، فوجد أتابك قد مضى الى ناحية حماة ليتفق مع الملك رضوان صاحب حلب، فخاف مسعود ان يتأخر الامر الى حين عودة أتابك من حماة فيسبق

بغدوين فينزل على صور، فيفوت الغرض، فتحدث مع تاج الملك بوري بالمسير معه الى بانياس، وانتهاز الفرصة في تسليم صور، فأجاب، فسار معه الى بانياس، وتم مسعود الى صور ومعه من يعتمد عليه من العسكر، وبلغ أتابك فبعث قطعة من الأتراك إلى تقوية صور، فساروا إليها ودخلوها، وطابت نفوس أهل صور، ثم كتب إلى الأفضل وزير مصر بأن الأفرنج نزلوا على صور، وشارفوا على أخذها، وبعث أهلها الي يستنجدونني، واني أنجدتهم بنفسي، ومالي ورجالي، ومتى وصل إليهم من مصر من يذب عنها سلمتها إليه، فلا تهمل حال الاضطول.

وجاء بغدوين، فبلغه الخبر فتوقف وفات غرضه، ولما فات غرضه شرع في الغارات على حوران والسواد، وكثر فساد، ثم كتب أتابك إلى مودود صاحب الموصل يخبره بالخبر، ويطلب نجده، وكانا قد اتفقا وتصادقا وتحابا محبة عظيمة كما ذكرنا.

فسار مودود بعساكره فقطع الفرات، وخرج إليه أتابك طغتكين، فتلاقيا عند سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين، وسارا من حمص ومعهما عساكر الشرق وعساكر حمص وحماة ودمشق، وجاءوا على البقاع فنزلوا الغور عند الاقحوانه، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة، فتقدم بعض المتعلفة فالتقوا الأفرنج، ونشب القتال، وجاء أتابك وقطع الجسر واقتتلوا، فانهزم الأفرنج وقتل منهم نحو ألفي فرنجي من الفرسان والشجعان والأبطال، وغنموا أثقالهم، وأفلت بغدوين بعدما قبض وأخذ سلاحه، وغرق أكثرهم في البحيرة، وبعث أتابك ومودود إلى السلطان محمد شاه يخبرانه بهذا الفتح العظيم وبعث سلاحهم، ثم أغار المسلمون على الضياع التي بين القدس وعكا، وأخربوا ونهبوا وعادوا إلى دمشق، ونزل مودود في قصر الميدان الأخضر، وبذل أتابك طغتكين جهده في التقدمة، ودخل يوم الجمعة الجامع، وزار المصحف العثماني، ثم ودعه وعاد إلى بلاده.

وذكر بيبرس هذا الذي ذكرناه.

وفي المرأة: وفي سنة خمس وخمسة جمع بغدوين إلى ههنا في سنة ست وخمسة... ومنها أن العظيمي ذكر في تاريخه ان الأفرنج فتحوا المرقب في سنة خمس وخمسة وهو الحصن المنيع الذي لايرام ولايقدر عليه، وذلك بسبب أن الغارات توالى عليه أربع سنين حتى ضعف أهله وهربوا وأخذ البلد من باقيهم بعد أن حوصر مدة، ثم فتحه الملك المنصور قلاوون من أيدي الأفرنج سنة أربع وسبعين وستائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

### فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة بعد الخمسة:

وفيهما سار الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرصافة ورعى عسكره زرعهما إلى سروج، وأهمل أمر الأفرنج ولم يجتريز منهم، فلم يشعر الا وقد كبسهم جوسلين صاحب تل باشرة، وكانت دواب العسكر منتشرة، فأخذ الأفرنج كثيرا منها، وقتلوا كثيرا من العسكر، فلما تاهب المسلمون للقاءه عاد عنهم إلى سروج.

قلت: هذا جرى على الأمير مودود بعد أن عاد من بلاد الشام.

وفيهما عاد جواب الأفضل وزير مصر إلى أتابك طغتكين في حديث مدينة صور برسول من عنده، وبعث بالاسطول فيه الميرة، ومال للنفقة للعساكر وغلات، وكان مقدم الاسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الأفرنج لها، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور، وزال طمع الأفرنج عن صور، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لأتابك طغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه، ولمسعود الوالي بصور، وأرسل بغدوين إلى مسعود يسأله الموادة والمسألة

لتنحسم أسباب الأذى من الجانبين، فأجابته الى ذلك، وانعقد الامر بينهما على السداد واستقامت الأمور وأمنت السبل، ومشت التجار من جميع الأقطار.

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين على حصن شيزر في عيد فصح النصارى، فوثب فيه مائة رجل على حين غفلة من أهله، فملكوا الحصن وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا أبوابه، وكان بنو منقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وبلغهم الامر فجاءوا، وكانوا قد أحسنوا الى هؤلاء الذين وثبوا، وإنما رتبوا ذلك في المدة الطويلة، ودلت الحرم الجبال من القلعة وتسلقت رجال ونزلوا وفتحوا الأبواب، ودخل بنو منقذ فقاتلوهم وقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية، ووقع الاحتراز بعد ذلك، فما كان يغيب منهم واحد إلا ويحضر الآخر.

وقيل كان بنو منقذ خرجوا إلى الصيد، وفعلت الباطنية ما ذكرنا لانتهازهم الفرصة... ..

الأمير سقمان بن أرتق، قد ذكرنا وفاته في هذه السنة، ثم أربع وخمسة، وذكر المؤيد وفاته في تاريخه في هذه السنة، ثم قال: ولما توفي سقمان ملك خلاط بعده ابنه ظهير الدين ابراهيم بن سقمان، وسلك سيرة أبيه، وبقي في ملك خلاط إلى أن توفي سنة احدى وعشرين وخمسة، فتولى مكانه أخوه أحمد بن سقمان الى ان توفي في الولاية بعد أحد عشر شهراً، ثم تحكمت والدتها اينانج خاتون ابنة أركماز، وبقيت مستبدة بمملكة خلاط ومعها ولد ولدها سقمان بن ابراهيم بن سقمان، وكان عمره ست سنين، فقصدت اعدامه لتنفرد بالمملكة، فلما رأى كبراء الدولة سوء نيتها لولد ولدها المذكور اتفق جماعة منهم وخنقوها في سنة ثمان وعشرين وخمسة، واشتغل ابن ابنها شاه أرمن سقمان بن

ابراهيم بن سقمان في الملك إلى سنة تسع وتسعين وخمسة على  
ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

بسيل الأرمني صاحب بلاد الأرمن، هلك في هذه السنة، فقصدها  
صاحب أنطاكية الأفرنجي ليملك بلاد الأرمن المعروفة الآن ببلاد سيس  
فمات في الطريق وملكها سيرجال.

طنكريد الأفرنجي صاحب أنطاكية، هلك في هذه السنة وهو قاصد  
بلاد الأرمن كما ذكرنا الآن، وتولى أنطاكية بعده ابن أخيه سيرجال  
الأفرنجي.

### فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة بعد الخمسة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب  
البلاد على حالهم، غير أن صاحب حلب رضوان، وصاحب الموصل  
مودود ماتا في هذه السنة.

### ذكر وفاة رضوان صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته، هو فخر الدولة، ويقال فخر الملك رضوان بن  
الملك تاج الدولة تتش ابن السلطان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن  
ميكال بن سلجوق. صاحب حلب، ملك حلب في السنة التي قتل أبوه  
فيها وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

الثاني: في سيرته، وكانت سيرته قبيحة، وأموره غير مرضية، وكان قد  
قتل أخويه قبل موته، وهما: أبو طالب، وبهرام، وكان يستعين بالباطنية  
في كثير من أموره لقلّة دينه.

وفي المرأة: وكان ظالماً بخيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولاشفقة على المسلمين، وكانت الأفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب، ولا يخرج إليهم، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وكان المستولي على أمره جناح الدولة حسين ففارقه، وقتل خواص أصحابه واحداً بعد الواحد.

الثالث: في وفاته، مرض أمراضاً مزمنة ورأى العبر في نفسه، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال ابن خلكان: مات رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الأفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما مات كان في خزائنه من العين والعروض ستمائة ألف دينار.

### ذكر ولاية ألب أرسلان بن رضوان:

ولما توفي رضوان المذكور، ولي بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم، وكان الأمر والحكم إليه، ولم يكن لألب أرسلان غير الاسم، ولم يكن أخرساً، وإنما كان في لسانه حبسه أو تمتمة، وكانت أمه بنت ياغي سيان صاحب أنطاكية، وعمره حين ولي ست عشرة سنة، وكان يلقب بتاج الدولة، وكان فعله كفعل أبيه، فإنه قتل أخوين كانا له، اسم أحدهما ملك شاه، واسم الآخر مبارك قتلها مكافأة لأبيه مثلما فعل بأخويه، وكانت الباطنية قد كثروا في حلب في أيام أبيه حتى خافه رئيسها ابن بديع وأعيان أهلها، فلما توفي رضوان قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والايقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ وعلى أصحابه، وقتل أبا طاهر وأخذ أموال الباقيين وأطلقهم ففرقوا، فمنعهم من قصد الأفرنج، ومنهم من توجه حيث شاء.

وفي تاريخ العظيبي: ووثب صاعد بن بديع رئيس حلب على الباطنية ومقدمهم أبو طاهر وخواصه اسماعيل، وقتل منهم جماعة، وملاً منهم السجنون، وقتل من مقدميهم جماعة ظفروا بهم، مقدار مائة وخمسين رجلاً، وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام رضوان، فمال إليهم خلق كثير من حلب إلى جبل السحاق وسرمين والمعرة وتلك النواحي، فلما مات رضوان قرر ابن بديع رئيس الأحداث بحلب مع ألب أرسلان بن رضوان على قتلهم وجري مذكرنا.

### ذكر مقتل مودود صاحب الموصل:

والكلام فيه على أنواع، الأول في ترجمته: هو الأمير مودود بن أطنطاش التركي، وكان أطنطاش من مماليك السلاجقة، وملك الأمير مودود الموصل وغيرها في سنة اثنتين وخمسة، أخذها من الأمير جاولي، كما ذكرنا.

الثاني في سيرته: كان رجلاً خيراً عادلاً، صاحب سيرة حسنة.

الثالث في مقتله: وقصته أنه اجتمع في هذه السنة المسلمون، وفيهم الأمير مودود وهذا وغيرك صاحب سنجار والأمير اياز بن ايلغازي، وأتابك طغتكين صاحب دمشق، ودخلوا بلاد الأفرنج وجمع الأفرنج مع بردويل ملك القدس، وجوسلين صاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين، وكان سبب اجتماع المسلمين أن بردويل تابع الغارات على بلد دمشق، فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه، فجمع العساكر وسار فعبر الفرات، فخاف الأفرنج، وسمع طغتكين فسار إليه ولقيه بسلمية، واتفق رأيهم على قصد صاحب القدس، فساروا فنزلوا عند الأقحوانة على الأردن، ونزل الأفرنج

على الصنبرة بينهم نهر الأردن، وهم مع ملكهم بردويل صاحب القدس، فاقتتلوا بالقرب من طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الأفرنج انهزموا وكثر فيهم القتل، وأسر ملكهم بردويل ولم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الأفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقبهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت قلوبهم وعادوا إلى الحرب، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، فأقاموا ستة وعشرين يوماً والمسلمون يرمونهم بالنشاب فيصيبون من قرب منهم، ومنعوا المير عنهم، فلم يخرج [أحد] منهم، فسار المسلمون إلى بيسان فنهبوا بلاد الأفرنج ما بين عكا والقدس وحرقوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا ونزلوا مرج الصفر، وأذن الأمير مودود للعساكر بالعود والاستراحة والاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وأقام بها عند طغتكين إلى الربيع، فدخل هو وطغتكين الجامع فوثب عليه باطني فقتله وجرح الباطني أربع جراحات وقتل وقطع رأسه وأخذ فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائماً فقيل له أفطر، فقال: والله لا لقيت الله الا صائماً، فمات من يومه رحمه الله.

وقيل إن الباطنية خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين وضع عليه من قتله، وهذا بعيد، والله أعلم، وكتب ملك الأفرنج إلى طغتكين: « إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يببدها»، وتسلم غيزك صاحب سنجار ما معه من الخزائن، وحملها إلى السلطان، ودفن مودود بدمشق في تربة الملك دقاق بن تشش صاحب دمشق كان، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم نقل إلى أصفهان.

وفي تاريخ المؤيد: ودخل مودود الجامع ومعه طغتكين وأصحابهما فصلوا الجمعة، وخرج طغتكين ومودود يمشيان في صحن الجامع، فوثب باطني على مودود وضربه بسكين، وقتل الباطني وحمل مودود إلى دار طغتكين ومات من يومه ذلك.

وفي المرآة: لما عاد مودود من قتال الأفرنج نزل في دمشق في الميدان الأخضر، وكان يدخل في كل جمعة إلى دمشق فيصلي في الجامع، ويتبرك بمصحف عثمان رضي الله عنه، فدخل إلى الجامع على عادته، ومعه طغتكين والغلمان حوله بالسيوف المسللة وأنواع السلاح وأتابك طغتكين بين يديه خدمة له، فلما حصلوا في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس لايؤبه له، ولا يحفل به، فقرب من مودود كأنه يدعو له ويطلب الصدقة، وضربه بخنجر أسفل سرتة ضربتين احدهما نفذت إلى خاصرته، والأخرى إلى فخذه، والسيوف تأخذه من كل ناحية، وقطع رأسه ليعرف شخصه وما عرف، فأحرق، وعدا أتابك خطوات وقت الكائنة وأحاط به أصحابه، ورجع إلى مودود وهو يمشي متماسكا حتى وقع عند الباب الشمالي من الجامع، وحمل إلى دار أتابك وخيط جرحه، فعاش ساعات يسيرة ومات في يومه، ففلق أتابك لوفاته على هذا الوجه، وحزن حزنا شديدا، وكذا سائر الناس، ودفن في مشهد داخل باب الفراديس، وشرع أصحابه في العود إلى الموصل وغيرها من البلاد، وأمر لهم باطلاق يستدعونه لسفرهم واستصحبوا معهم أمواله وجواريه وأسبابه، ولم يزل مدفونا حتى وصل من زوجته وولده من الموصل - في شهر رمضان - من حمله في تابوت إلى الموصل، وشيعه أتابك إلى الثنية، وبلغني أن أتابك سأله أن يفطر في ذلك اليوم، وكان صائما فلم يفعل، وقال: والله مالقيت الله إلا صائما، وكتب بغدوين ملك الأفرنج إلى طغتكين: «ان امة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله ان يبيدها» وقول بغدوين: «يوم عيدها» يعني «يوم الجمعة» وقيل انها كانت في سنة خمس وخمسةائة، وذكر بعضهم ان أتابك

خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بهال جزيل.....

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والستين بعد الخمسةائة:

استهلت هذه السنة والخليفة ببغداد المستنجد العباسي، وبمصر العاضد العلوي، ووزيره بمصر شاور، ولكنه قتل في هذه السنة على يد أسد الدين شيركوه حين فتح مصر على ما ذكره الآن، إن شاء الله تعالى.

### ذكر فتح مصر على يد شيركوه وماجريات ما حدث له، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في سبب توجه شيركوه إلى مصر وسفره إليها، وهي المرة الثالثة، وقد ذكرنا سفرتين له قبل ذلك، وكان السبب في ذلك أن الفرنج لما جعلوا لهم شحنة بالديار المصرية تحكّموا في أبوابها وسكنها أكثر شجعانهم على ما ذكرنا، وطغوا وبغوا، واستحوذوا عليها، وأخرجوا منها غالب أهلها من دورها، ولم يبق إلا أن يملكوها بالكلية، ومع ذلك ركبت امدادهم من كل ناحية، وصاروا صحبة مري ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ما أخذوا مدينة بليس فقتلوا منها خلقا كثيرا وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم وجعلوها موثلا ومعقلا، وكان ذلك في مستهل صفر من هذه السنة، ثم صاروا من بليس، ونزلوا على القاهرة عاشر صفر من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد إلى الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله يستغيث به،

وأرسل في الكتب شعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساء المسلمين من أيدي الأفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين

شيركوه مقبلاً عندهم وله اقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية.

وفي تاريخ بيبرس: قدم الفرنج من الساحل إلى مصر طامعين في ملكها لما بلغهم أن نور الدين بن زنكي فرق عساكره وانشغل بالشام فيما هو بصدد، ورأوا خلو مصر من الجند وأن ليس بها مانع، وراسلوا ملكهم مري في ذلك فلم يجبهم إليه، فقالوا: إن لنا بها قوة، وإن شاور كان لما فارقه الفرنج ترك عنده بمصر جماعة منهم يجرسونه ممن يأتي إليه من عسكر الشام، فقال لهم مري: فهذا لا يتم لنا وإن ملكناهم لم تطغنا العامة والفلاحين، ويجيء عسكر نور الدين فيأخذونها فيكون ذلك دماراً على الفرنج ووهنا، فساروا وأظهروا أنهم قاصدوا حمص، فلما سمع نور الدين بذلك جمع عساكره وسار الفرنج من الساحل، فقدموا بلبس ونازلوها، فأرجف الناس بذلك، وشرع شاور في بناء حصن على مصر استعمل فيه جميع أهل مصر، وحفر خندقاً، وكان في عسكر الفرنج جماعة من الأمراء المصريين ممن هرب من شاور: يحيى بن الخياط، وابن قزلبا، وعلم الملك ابن النحاس، فملكوا بلبس عنوة وسبوا أهلها وقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا ابن شاور، وساروا طالبين القاهرة، ولما قربوا منها أمر شاور باحراق مصر فأحرق، وانتقل بعض أهلها إلى القاهرة، وتفرق بعضهم في البلاد، ونهبوا أقبح نهب، وذهبت أموال أهلها، وبقيت النار مستمرة الحريق فيها أربعة وخمسين يوماً، ولما علم أهل القاهرة عجزهم عن مقاومة الفرنج سير العاضد وشاور إلى نور الدين بن زنكي يستغيثون به من الفرنج، وأرسلوا إليه شعور النساء في طبي الكتب، وأرسل شاور إلى مري ملك الأفرنج يبذل له مالا على أن يرحل ويزيح الأفرنج عن القاهرة، وتقرر الحال على ألف ألف دينار، فقال مري لأصحابه: نأخذ هذا المال نتقوى به ولانبالي بعد ذلك بنور الدين، واستوثق شاور منه بالايان، وعجل له من المقرر مائة ألف دينار وأخذ

يأطله بالباقي ويمنيه، وشرع شاور يجمع من أهل القاهرة مالا، فلم يحصل له شيء لضعف أهلها، ولم يجتمع له بالجهد والمصادرات سوى خمسين ألف دينار، وفي خلال ذلك كانت الرسل متواترة إلى نور الدين للاستعانة به والاستغاثة إليه، فجهز أسد الدين شيركوه.

وفي المرأة: وفي صفر خرج الأفرنج من عسقلان والساحل طالبين الديار المصرية، فنزلوا على بليس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج، وقتل البعض وهرب الباقون، ثم سار الفرنج من بليس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانق فلم يجد شاور بدا من أن كاتب نور الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرتين الأولىين اطلعوا على عورتها، وطمعوا فيها، ولما علم نور الدين بذلك استرجع وخاف عليها، فقال لشيركوه؛ خذ العساكر وتوجه إليها، وقال لصالح الدين: اخرج معه، فامتنع وقال: يامولانا يكفي مالقينا من الشدائد، فقال: لا بد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين، فساروا إلى مصر.

وفي تاريخ الدولتين: لما أتى رسول العاضد إلى نور الدين بذلك أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، فأتى من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسر، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في الخزائن وأمر العساكر، فاختر من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين لكل فارس من العسكر

الذي مع أسد الدين عشرين دينار معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنصرين من الله عز وجل وذلك في منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه على رأس الماء، فأقام ينتظر بورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم، لما سمعوا بورود عسكر نور الدين ووصولهم.

وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان - يعني - صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وماخرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ [البقرة ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه، وقال صلاح الدين: لما قال لي عمي: تجهز يا يوسف فكأننا ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لأنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقبله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وقلّة الدواب وما احتاج إليه، فأعطاني ما تجهزت به، وكأننا أساق إلى الموت،

وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه، وحرضه أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة يمدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا  
إذا ما يوسف بالمال جادا  
فتسى للدين لم يبرح صلاحا  
ولسلاء دعاء لم يبرح فسادا  
لئن أعطاه نور الدين حصنا  
فإن الله يعطيه البلادا  
إلى كم ذا التواني في دمشق  
وقد جاءكم مصر تهادي  
عروس بعلمها هزبر هصور  
يصيد المعتدين ولن يصادا  
ألا يمامعشر الاجناد سيرا  
وراء لوائه تلقوا رشا  
فما كل امرئ صلى مع الناس  
مأموما كمن صلى فرادا<sup>(٣)</sup>

فلما سافر صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة الى داره، فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلعت  
من القمر الوضاح والمنهل العذب  
فوالله لولا سرعة مثل عزمه  
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي<sup>(٤)</sup>

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش  
جوا قيسارية القصاع وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله.

الثاني: في وصول شيركوه إلى البلاد المصرية، كان وصوله مع العساكر  
إلى بلاد مصر في السابع من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما وصلوا  
وجدوا الفرنج قد انشَمروا عن القاهرة خائبين، فدخل شيركوه على  
العاضد في ذلك اليوم وخلق عليه خلعة سنية فلبسها وعاد إلى مخيمه  
بالخلع العاضدية بظاهر البلد، وفرح المسلمون بقدمه إليهم، وأجريت  
عليهم الجرايات، وحملت إليهم التحف والكرامات، وخرج وجوه الناس  
إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان بمن جاء إلى المخيم الخليفة العاضد  
متنكراً فأسر إليه أموراً مهمة منها قتل الوزير شاور، فقرر ذلك معه،  
وعظم أمر شيركوه بمصر، ولم يقدر الوزير على منع شيء من ذلك لكثرة  
الجيش الذي مع أسد الدين، ولكن شرع يباطل فيما كان قرر لهم  
وللملك نور الدين بما كانوا التزموا له ولهم، وهو مع ذلك يتردد إلى أسد  
الدين، ويركب معه ويعده ويمنيه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قرب شيركوه من القاهرة عاد الفرنج عنها إلى  
بلادهم، ومعهم من الأسرى اثني عشر ألف نفس من الجند والعامّة  
وغيرهم، ودخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع  
الآخر من هذه السنة، فلتقاه العاضد وأجلسه إلى جانبه، وخلق عليه،  
وضربت البشائر، وشرع في اطفاء النار بمصر، وتقدم العاضد بأن ينزل  
على شاطئ النيل بالمقس، وقام شاور بعسكر شيركوه، وأقام لهم  
الضيافات، وأظهر له ودا كثيراً، واعتمد أن يتردد إليه كل يوم، فطلب  
شيركوه منه ما لا ينفقه في عسكره، فدافع في ذلك، فسير إليه الفقيه  
عيسى الهكاري يذكر له أن العسكر جياع، وقد طال مقامهم وأنا أخشى  
عليك منهم، فلم يكثرث شاور بكلامه، فلما طالت مطالبتهم له عزم  
على أن يعمل دعوة لأسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه، ويقبض

عليهم ويستخدم من معه من الجند، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وقال: لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له شاور: لئن عرفته ليقتلنا عن آخرنا، فقال له: صدقت، ولئن يقتلنا ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكنا الأفرنج فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحيثذ لومشى العاضد لنور الدين ماأغاثه، ولا أرسل أحدا ويملكون البلاد، فترك ماكان قد عزم عليه، فسير العاضد أعلم شيركوه بذلك، ولما رأى الأمراء النورية ماطلة شاور خافوا شره، فاتفقوا مع صلاح الدين يوسف على قتله، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه.

وفي المرأة: وكان أرباب الدولة كل يوم يترددون إلى خدمة شيركوه، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة عساكره وميل العاضد إليه، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر، وبلغ أعيان دولة المصريين فاجتمعوا عند شيركوه، وقالوا: شاور هو فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج، فشرع في عمل دعوة لاسد الدين على ماذكرناه.

### الثالث: في مقتل شاور.

ولما صدر من شاور ماذكرناه من سوء العزم في حق شيركوه، ورأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم عنه، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار في بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رحمه الله، وقصد شاور على عادته للاجتماع به، فلقية صلاح الدين وعز الدين ومعهما جمع من العسكرة، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه،

فسار وهما معه قليلا، فألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيرا، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً، ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه، وأرسل الـ لاضد صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتتابع الرسل بذلك فقتل شاور في يومه وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه الى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ماخاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدتها الناس ينهبونها، فتفرقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شداد: وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بهال في قبالة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئا، وأنه يلعب بهم تارة وبالآخرى، وعلموا أنه لاسبيل للاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فاجتمع أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين، وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر منهم على قبضه إلا السلطان نفسه، يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل في خيمة مفردة، وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبتة، وأنفذ رأسه إليهم.

وفي المرآة: واختلفوا في كيفية مقتل شاور على أقوال: أحدها أن الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبته الفرنج، وأن أسد الدين تمارض، وكان شاور يخرج إليه كل يوم والطبل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه.

والقول الثاني أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله، وأخبرا أسد الدين فنهاهما عن ذلك وسكتا، واتفق أن أسد الدين ركب إلى زيارة الشافعي فأقام عنده، وجاء شاور على عادته إلى أسد الدين، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: انزل هو في الزيارة فامتنع فجذباه فوق إلى الأرض فقتلاه.

والقول الثالث: أنها لما جذباه لم يمكنها قتله بغير أمر أسد الدين، وسجنه الغلمان في الخيمة وانهمز أصحابه إلى القاهرة ليجيشوا عليهم، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول له: في رقبتني أيهان وأنا خائف عليك من الذين عندي فلا تجيء، فلم يلتفت وجاء على عادته فجذبوه وألقوه عن فرسه، وأدخله جرديك إلى الخيمة وحز رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به، ودعا العاضد ولد شاور الكامل، فقتله في الدهليز، وقتل أخاه، واستوزر شريكوه على ما ذكره الآن، ان شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: ودخل أولاده إلى القصر مستجيرين بالخليفة، فأخذوا وعوقبوا أشد العقاب، ثم قتلوا وهم: الكامل، والمعظم، وركن الاسلام.

#### الرابع: في ترجمة شاور.

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث ابن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يحنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليلة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وفي هذا نظر لقصر هذا النسب بالنسبة إلى بعد المدة، والله أعلم، قلت: أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شحنة بن جابر بن رزام بن ناصر بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، السعدي، وكان شاور يلقب بأمر الجيوش، وهو الذي انتزع الوزارة من أيدي بني رزيك - كما قلنا - وهو أول من استكتب القاضي الفاضل، استدعى به من اسكندرية من باب السدرة، فحظي عنده، وانحصر منه الكتاب بالقصر لما رأوا من فضيلته، وكان شاور على توليه الصعيد، ولاه الملك الصالح طلائع بن رزيك - كما ذكرنا - ولما جرح الصالح، وأشرف على الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات: أحدها تولية شاور، والثانية بناء الجامع المعروف به على باب زويلة، وكان قد بقي عوناً لمن يحاصر القاهرة، والثالثة خروجه إلى بلييس بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق عليهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم سيره إلى بلاد الشام ويفتح البيت المقدس، ويستأصل شأفة الفرنج، وقد ذكرنا أن شاور قد تمكن في الصعيد، وكان ذا شهامة وفروسية، وكان قد قدم الصعيد على الواحات، واخترق تلك البراري إلى أن خرج عند تروجه بالقرب من الاسكندرية، وتوجه إلى القاهرة ودخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وهرب العادل رزيك وأهله من القاهرة ليلة العشرين من المحرم وقتل العادل بن صالح وأخذ شاور موضعه من الوزارة واستولى، ثم لما خرج أبو الأشبال ضرغام بن عامر توجه إلى الشام مستنجداً بنور الدين محمود، وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة - كما ذكرناه - وتولى ضرغام الوزارة مكانه، فأنجده نور الدين بالأمير أسد الدين، والقصة مشهورة، ثم آل الأمر إلى أن قتل شاور يوم الأربعاء السابع عشر، وقيل الثامن عشر من ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، ودفن في تربة ولده طي، وهي في القرافة الصغرى بالقرب من تربة الفاضل القاضي، وللفقيه عمارة فيه مدائح من جملتها قوله من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد وشاور  
من نصر آل محمد لم يضجر  
حلف الزمان ليأتين بمثله  
حتت يمينك يا زمان فكفر

وقال عمارة اليميني: قضى قدوم الغزّ برحيل الأفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور أن مات قتيلًا بعد قدوم الغزّ بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يُربّ أحد رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته مدة تسعة أشهر، مدة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وهو الذي أطمع الغز والفرنج في الدولة حتى انتقلت من أهلها، ولما عاد من اسكندرية أكثر سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم يسحب القتلى إلى خارج الدار.

الخامس: في وزارة أسد الدين شيركوه.

ولما جرى على شاور ما ذكرناه دخل شيركوه على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية وولاه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلعة إلى دار الوزارة، وهي الدار التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وأمر بنهب ما في دار شاور، وعظم شأنه، وقوى أمره، وأرسل أسد الدين يطلب إلى القصر كاتباً له، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل، رجاء أن يقتل معه إذا قتل، فيما كانوا يؤملون، وشرع في بعث العمال إلى الأعمال، وأقطع الاقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حماه وانقطع أمه.

وفي تاريخ بيبرس: لما قتل شاور أرسل العاضد فاستدعى أسد الدين من المخيم، فدخل القاهرة من وقته، ودخل القصر، فرأى اجتماع الناس، وكثرة العوام فخافهم على نفسه، فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دور شاور ففرقوا عنه، ومضوا إليها فنهبوها، ومثل شيركوه بين يدي العاضد فخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليداً.

وفي تاريخ الدولتين: وزارة أسد الدين عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر.

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور ومن قبله من الوزراء، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصالح الدين مباشر للامور مقرر لها، وزمام الأمر مفوض إليه لكان كفايته ودرايته وحسن تأتبه وسياسته.

وقال ابن خلكان: وكانت ولايته الوزارة يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة.

السادس: في نسخة التقليد المنشأ عن العاضد بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شيركوه: «الحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ما أودع ضمائر القلوب من مراده، القوي على تقريب ما قضت الهمم باستبعاده، المليء بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده، يؤت الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر ارشاده، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده، ينجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم، واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة مالا تفعله الهمم، وخلعت آثاره على

الدنيا تخلعة الأنوار على الظلم، وعدمت أنظاره بما وجد من محاسنه التي فاق بها ملوك العرب والعجم، وانتقم الله به من ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم، وزاد عن موارد الدين من هو بها أولى، ويأبى الله الا امضاء ماحتهم، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينه، وقضى على يده من نصره الدين دينه، ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ [الأنفال ٦٣] والحمد لله الذي خص جدنا محمد بشرف الاصطفاء والاجتباء، وانفضه من الرسالة بأثقل الاعباء، ووفر له من شرف المقام المحمود أوفر الانصباء، وأقام به القسطاس، وطهر به الادناس، وأمده بالصابرين في البأساء والضراء «وحين البأس» وألبس شريعته من مكارم الافعال والاقوال أحسن لباس، وجعل منه النور ساريا في عقبه لانتقصه كثرة الاقتباس، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، والحمد لله الذي اختار لأمر المؤمنين من يقوم في أمته مقامه ويهدي بمرأشده نوره الى دار المقامه، وأوضح به منار الحق وأعلامه، وجعله شهيد عصره، وحجة أمره، وباب رزقه، وسبيل حقه، وشفيع أوليائه، والمستجار في الخطوب بلوائه، والمضمونه له وبه العقبي، والمسؤول له الأجر في القربى، والمفترض له الطاعة على كل مكلف، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه من تأخر في مضمار النجاة وتخلف، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادي الى الحق والى صراط مستقيم، لا يقبل عمل الا بخفارة ولائه، ولا ينجح أمل الا بسفارة آلائه، ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة، ولادين ولا دنيا الا معه، ليتضح النهج للقاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليبين الذين اختلفوا فيه، وليعلموا انها هو إله واحد، يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبه، وانتشر فعم نفعه البشر، والاستظهار الذي استنزل فيه جنود السماء والأرض، الذي عقد الله منه عقدا لا تدخل عليه أحكام النقص، والانتصار الذي أبان به معنى قوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ (البقرة ٢٥١) ونسأله أن يصلي على جده

محمد الأمين المبعوث رسولاً في الأميين، الهادي إلى دار الخلود، والمستقل باستقلال عوائل الجدود، وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وامام شيعته، وباب علمه، وسيف نصره، ولسان حكمه، وقسيمه في النسب والسبب، ويد الحق التي حكم لها بالقلب، وعلى الأئمة من ذريتها وسائط الحكم، ومصاييح الظلم، ومفاتيح النعم، وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله إليه من ايالة الخليفة، ومنحه من كرم السجية وشرف الخليفة، وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمنية كل من تمن، واتمنه من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع وأكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب، وتسهيل الطلاب، وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوائم، ويعرف بعوارفها الفرادى والتوائم، ويثق بوعده الله إذا استهلكته المصابر، ويضرع الى الله اذا فرغ الصابر، فما اعترض ليل كربة الا انصدع له عن فجر وضاح، ولا انتقض عهد غادر الا عاجله الله بأمر فضاح، ولا انقطعت سبيل نصره الا وصلها عزه، يرسل ارسال الرياح، ولا انصدعت عصا ألفة الا تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح، وإذا أعدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والسعادات المقسومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً، وأعلاها حضراً، وأقضاهها للامة وطراً، فليهنئك أنك حزب الله الغالب وشهاب الله الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود والمقدم في بيته، وماتأخرت الا لأجل معدود، نصرت حين تناصر الضلال، وهاجرت اليه هاجرا برود الزلال وبرد الظلال، كشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة، وغضضت أعتة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابه الموقفة، وأنقذت الاسلام وهو على جرف هار، ونفذت حين لاتنفذ السهام عن

الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار، ونصرت حق الله بنصرتك له،  
وكم من أناس لابرؤيته بأنصاره، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه،  
وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا يتيقيه وكذبه، وما يومك في نصر  
الاسلام بواحد، ولأأمسك بمجحد وإن رغم أنف الجاحد، أوجبت  
الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة،  
واقترعت صهوة هذا المحل الذي رفاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك،  
وأمت الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات في لحاقك، وكنت  
البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ نجحه، المذعورة أعداء أمير  
المؤمنين إن فوق سهمه وأشرع رحمة، ولقد استشرفتك الصدور،  
وتطلعت اليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من  
المهور، نصرت الاسلام بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين  
كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، ونادتهم سيوفكك «ولاقرار على  
زئير من الأسد» فأدال الله بك ممن قدم على قدم، وندم فما أغنى عنه  
الندم، حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته، واستمر في استطالته،  
وتوالت عنه عثرات ما أتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالات، وضيق  
من أرزاقهم مجالا، وسلب من ذخائرها ذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من  
أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته عن التعديد،  
وما العهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك حوادثها فواجب أن تنسخ  
أحاديثها، وأتى الامامة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها،  
ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار، وتحقق أنك ممن  
يتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على بينة من أن  
الله يحمد فيك عواقب الاختيار، وكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت  
بحيث دعا وأعجل، وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو،  
وجمع على التوفيق لك طر في الرواح والغدو، ولو لم يلبس الكافر  
لسهامك جنة الا الفرار، وكان ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض  
مالها من قرار﴾ [ابراهيم ٢٦] فله درك حين قاتلت بخبرك قبل

عسكرك، ونصرت بأثرك قبل طلوع عثرك، وأكرم بك من قادم خطواته مبروزة وسطواته للاعداد مبيرة، وكل يوم من أيامه بعد يسيرة، فإنك المبعوث الى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر، والمقدم في تقدم النية وإن كنت في الزمان المؤخر، ولما جرى من جرى ذكره على عادته في إيجاشك والإيجاش منك بكواذب الظنون، وقرب رجعتك عن الحضرة وقد قربت الدار وقرت العيون، وكان كما قال الله في كتابه المكنون: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر اسم الله وهم كارهون﴾ [التوبة ٤٨]، وأخذه من أخذه ألم شديد، وعدل فيه من قال: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت ٤٦] ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق ٣٧].

قال العماد الكاتب: وكتب لأسد الدين منشور من القصر، بسيط الشرح، طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرته بخطه، ولاشك انه باملاء كتابه: «هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملة، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة، واتخذ للفوز سيلا، ﴿ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ [النحل ٩١] ونسخة المنشور.

«من عبد الله ووليه محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الاجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وداعي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع ببقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، والأئمة المهديين، وسلم تسليما». ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل، على عادة الكتاب المتأخرين

الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية، فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم اتصل بالكامل بن شاورة فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً، أرسل به إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه، فنخلص من مزاحته لنا، فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزد كل يوم الا تقدماً، بصدقه ودينه، وحسن رأيه، وأنفذ العباد قصيدة طويلة تهنته لأسد الدين، أوهلها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب

كم راحة جنيت من دوحة التعب

يا شيركوه بن شادي الملك دعوة من

نادى فعرف خير ابن بخير أب

جرى الملوك وما حازوا برخصهم

من المراقبي العلي ما حزت بالخب

تمل من ملك مصر رتبة قصر

عنها الملوك فطالت سائر الرتب

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها

ميسر افتح بيت القدس عن كئيب

أنت الذي هو فرد من بسالته

والدين من عزمه في جحفل لجب

في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى

والقلب في شجن والنفس في شجب

إلى أن قال:  
من شر شاور أنقذت العباد فكم  
وكم قضيت لحزب الله من أرب  
هو الذي أطمع الأفرنج في بلد الـ  
اسلام حتى سعو اللقصد والطلب  
وما غضبت لدين الله متقما  
الانيل رضى الرحمن بالغضب  
وحين سرت الى الكفار فانهزموا  
نصرت نصر رسول الله بالعرب  
يا محيي الامة الهادي بدعوته  
لشرشد كل غوي منهم وغبي

الى ان قال:  
فالجد والجد مقرونان في قرن  
والحزم في العزم والادراك بالطلب  
فظهر المسجد الاقصى وحوزته  
من النجاسات والاشراك والصلب  
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا  
وفي القيامة تلقى خير منقلب<sup>(٥)</sup>

السابع: في وفاة أسد الدين شيركوه.

لما استقر شيركوه في الوزارة ولم يبق له منازع واستعمل على الأعمال من يشق به من أصحابه وأزلامه عرض له مرض شديد بعلة الخوانيق، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام، وحملت جثته إلى المدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، ودفن بها.

وفي تاريخ الدولتين: توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحم الغليظة، تتواتر عليه التخمة والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله.

وفي المرأة: ودفن بظاهر القاهرة، إلى أن مات أخوه نجم الدين أيوب، فحملا جميعا إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فدفنا في رباطيهما.

وفي تاريخ ابن كثير: ويقال إنه مات يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر.

الثامن: في ترجمة شيركوه.

هو أبو الحارث، أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو ونجم الدين أخوين ابنا شادي المذكور، وكان أيوب أكبرهما، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهم من بلد دوين، بلدة من أعمال أخلاط.

وقال ابن خلكان: وكان شادي بن مروان من أهل دوين، ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور،

وكان بينهما من الاتحاد كما بين الاخوين، فجرت قضية لبهروز في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها وخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الاقامة بالبلد، وقصد خدمة بعض الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الأمور، فتقدم عنده، وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاده، فأنكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه، وشكر دينه وعفته ومعرفته، ثم صار يسير إلى السلطان في الأشغال، فخف على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهمات، وسلم إليه اولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ما صار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوله الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه مانسيه، فلما وصل بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق ان السلطان رأى توجيه مجاهد الدين المذكور الى بغداد، واليا عليها ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي المذكور، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، وتولى ولده نجم الدين أيوب

المذكور، فنهض فسي أمرها، وسكن بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه شيركوه - كما ذكرنا - ثم اتفق ان بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه شيركوه، وهي تبكي، فسألاها عن ذلك، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة فتعرض لي الاسفسهلاز، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفسهلاز وضربه بها فقتله.

فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه بصورة الحال ليفعل فيه ما يريد وما يراه، فوصل إليه جوابه: لأبيكما علي حق،

وبيني وبينه مودة متأكدة، وما يمكنني ان اكافيكما بحالة سيئة تصدر مني في حقكما، ولكن اشتهي منكما ان تتركا خدمتي وتخرجا من بلدي، وتطلببا الرزق حيث شئتما، فلما وصلهما الجواب ما أمكنهما المقام بتكريت وقصدا والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذلك لما كان قد تقدم لهما عنده، وذلك ان زنكي دخل تكريت عندهما حين هرب من قراجا الساقى، وأحسننا إليه وخدماه خدمة بليغة، ولما دخل أيوب وشيركوه عند أتابك زنكي في الموصل أحسن هو أيضا إليهما، وزاد في اكرامهما والانعام عليهما، واقطعها اقطاعا حسنا، ثم لما ملك زنكي قلعة بعلبك استخلف بها نجم الدين ايوب، واقره بعده نور الدين محمود ولده، فحظيا عند نور الدين كما كانا عند والده زنكي، وصار شيركوه أكبر امراء نور الدين وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الرحبة وحمص مع ماله عنده من الاقطاعات، وذلك لشهامته وصرامته وجهاده في أعداء الله الفرنج وغيرهم في أيام معدودات، ووقعات معتبرات، ولاسيما يوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك ما فعله بديار مصر.

ثم أرسله نور الدين إلى مصر مرة بعد أخرى كما ذكرنا حتى ملكها وتولى الوزارة فيها عوضا عن شاور يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي في التاريخ الذي ذكرناه.

وفي تاريخ الدولتين: وكان شيركوه شجاعا بارعا قويا جلدا في ذات الله، شديدا على الكفار، وطاعته عظيمة، في ذات الله صولته، عفيفا دينيا، كثير الخير، وكان يجب أهل الدين والعلم، كثير الايثار، حديبا على أقاربه وأهله، وكان فيه امسك، وخلف مالا كثيرا، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الاسدية، وكان مشيدا قواعد الدولة الشادية والمملكة الناصرية رحمه الله.

وقال ابن عساكر: ولي أسد الدين دمشق مدة، وأقام يحارب الفرنج، وفتح حصونا كثيرة، وكان شجاعا مقداما، صارما مهيبا، وحج سنة خمس وخمسين وخمسة.

وقال الشيخ شهاب الدين: وإلى أسد الدين شيركوه تنسب الخانقاه الاسدية داخل باب الجاية بدرب الهاشميين، والمدرسة الاسدية بالشرف القبلي رحمه الله، وشيركوه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف، وكسر الراء المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وهو في آخره هاء، وهو لفظ أعجمي مركب من: شير يعني الاسد، وكوه، يعني الجبل، وشادي بالشين المعجمة وبعد الألف الساكنة دال مكسورة، وفي آخره ياء، آخر الحروف، وهو اسم أعجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

التاسع: في وزارة صلاح الدين.

لما توفي أسد الدين شيركوه طمحت نفوس الامراء النورية الذين كانوا صحبتته الى الوزارة، وخطبها كل منهم إلى نفسه، وهم: عين الدولة الياروقي، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين يوسف، فأشار على العاضد خاصته ونصحائه بتولية صلاح الدين لطواعيته، وماجرت به الاقدار من سعادته، فاستدعاه وجلده وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك الناصر، فأنف الامراء المذكورون من طاعته والإقامة في خدمته، وفارقوه إلى الشام الا البعض منهم، فإن الفقيه عيسى الهكاري سعى في الصلح بينه وبينهم واستمالهم بالعطاء وبذل الأموال لهم ولسائر الأجناد، فاجتمعوا عليه، ومالت قلوبهم إليه، وتحلوا عن العاضد، فضعف أمره.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما توفي شيركوه في التاريخ المذكور أشار الامراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه،

فولاه الخليفة العاضد الوزارة، وخلع عليه ولقبه الملك الناصر، وأطاعه جميع الامراء النورية غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: لأخدم صلاح الدين، وعاد الى الشام، وثبتت قدم صلاح الدين في الوزارة، على أنه نائب لنور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين ي كاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهلارا، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما له.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم: عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي ابن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه لايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين، وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها: «إن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل» فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الامر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال

إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه، فلا يصل إليك، ولم ينزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له، ثم عدل الى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعده وزاد اقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضا، وعدل الى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا، فلم ينفعه رقا، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبدا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الأمر، ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ [الأنفال ٤٢] وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون الا عن امره، وكان نور الدين يكتب إليه: «الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا»، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئا يخرج به فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر، والثبات فيه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم فيفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما

تخدمني فسر إليه وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد الكاتب: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لا يتنظم، والخلل لا يلتئم، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعده، وعقدوا لصالح الدين الرأى والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السيادة بتليته، وشرع في ترتيب الملك، وتربيته، وفض ختم الخزائن وأمضى رسوم المزاين، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ما جمعه أسد الدين في حياته، وأنارت على منار العلى انارة آياته [ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبوه ولم تنزل محبته غالبية على مهابته، وهو يباليغ في تقريبيهم]<sup>(٦)</sup> كأنهم ذوو قرابته، وضم من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال والعذب الزلال، ثم ذكر العماد عبارات حسنة وقال: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبدلت عقودها وما انتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسنى له من المرام، وترددت كتب صلاح الدين بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش وبرح القلوب العطاش، فإن أصحابنا وإن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألونها، ورأوا وجوها هنالك لهم عابسة، وأعيننا للمكائد متيقظة، وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوله:

يا أيها الغائبون عنّي وأن كنت

تم لقلبي بذكركم جيرانا

إنني مدفقدتكم لأراكم

بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عنني وقلبي  
معهم لا يفارق الأظعاننا  
ملكوا مصر مثل قلبي وفيه  
ذا وتلك أصبحوا سكاننا  
فاعدلو وافيهما فانكم اليوم  
ملكتم عليها سلطاننا  
لاترعووا بالهجر قلب محب  
أورثته روعاته الخفقاننا

الآيات:

وبعد فإن وفود الهناء وامتداد الدعاء متواصلة على الولاة، صادرة عن  
محض الولاة الى عالي جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس، فليهنه  
الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو، وكيف لا يكون  
النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم به نجاحه وفلاحه:  
فالشام يغبط مصر منذ حللت بها  
كما الفرات عليكم يحسد النيل  
نلتهم من الملك عفواً ما الملوك به  
عنوا قديماً وراموه فما نيلاً

وقال العماد: ورثت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين،  
وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعض في هذا المصاب المباغت  
من الدين لولانوره كل ثابت  
فأيام نور الدين دامت منيرة  
لنا خلفاً من كل مود وفائت  
فما بالنابدي التصام غفلة  
وداعي المنايانا طق غير صامت

نؤمل في دار الفناء بقاءنا  
ونرجو من الدنيا صداقة ماقت  
وما الناس الا كالغصون يد الردي  
تقترب منها كل عود لناحت  
لقد ابلغت رسل المنايا واسمعت  
ولكنها لم تحظ منا بناصت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين  
محمد:

ما بعد يومك للمعنى المذنب  
غير العويل وحسرة المتأسف  
ما أجرأ الحدثن كيف سطا على الا  
سد المخوف سطا ولم يتخوف  
من ذارأى الأسد الهصور فريسة  
أم ابصر الصبح المنير وقد خفي  
من ثابت دون الكفاة سواه ان  
زلت بهم اقدمهم في الموقف  
ما كان اسنى البدر لو لم يستتر  
ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف  
ما كنت اخشى ان تلم ملامة  
يوما وأنت لكرهها لم تكشف  
أيام عمرك لم تزل مقسومة  
لله بين تعفف وتعرف  
متهجد العباده او تاليا  
من آية او ناظر افي مصحف  
فجع الندى والباس منك بحاتم  
ويحيدر والحلم منك بأحنف  
بالملك فزت وحرزته عن قدرة  
ومضيت عنه بسيرة المتعفف

ووصفت ياأسدالدين محمد  
مدحا يملك به لم يوصف

وفي تاريخ الدولتين: فوض الامر لصلاح الدين بعد أسد الدين، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذلت الاموال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه، وما ازداد الا جدا الى ان توفاه الله الى رحمته.

العاشر: في صفة خلعتة التي خلعت عليه للوزارة.

قال الشيخ شهاب الدين في الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين رحمه الله: عمامة بيضاء تنيسية بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة بثمانين ألف دينار، وعليها سرج ذهب وسرفسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبية بذهب، وفيها مشدة بيضاء بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، ولم يتخلف عنه منهم سوى عين الدولة الياروقي - كما ذكرنا - وسار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام صلاح الدين بصفة نائب الملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية.

الحادي عشر: في نسخة التقليد المنشأ بتفويض الوزارة لصلاح الدين:

«من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى

السيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمة، منجد الأمة، صلاح الدين، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي المظفر يوسف العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الأئمة الطاهرين المهديين، وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحمد لله مصرف الاقدار، ومحصي الأعمال والأعمار، وعالم سر الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكا دوارا تتعاقب فيه أحوال الأعمار بين انقضاء واستقبال سرار، وروضاء إذا ذوت فيه الدوحات أينعت الفروع، سابقة النوار، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها، والقائم بنصر دولته، فلا تزال حتى يرث الارض ومن عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار، وأغنائه باقتضاب الالهام عن رؤية الاختيار، وعضد به الدين الذي ارتضاه، وعضده بمن ارتضاه، وأنجز له من وعد السعادة ما قضاه قبل اقتضاه، ورفع محله عن الخلع فكلهم مضاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته الأسد وشبله ونعمته ميراثا أولى به ذوي الارحام من بني الاولاد وأهله، وأظهر في هذه القضية ما أظهر في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله، فأولياؤه كآيات التي سبق ذراري ألقها المنير، ونسق درر عقدها النظم النضير، ﴿ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة ١٠٦] والحمد لله الذي أتم له الرشاد، وجعله أولى من خلق ساد وللحق شاد، وأثره بالمقام الذي لا ينبغي الا له في عصره، وأظهر له من المعجزات لنصره ما لا يستقل العدد بحصره، وجمع له ولبن والاه من رفع قدره، ووضع أصره، وجعل الامامة موضوعة في عقبه، والمعقبات تحفظه بأمره، وأودعه

من الحكم التي رآه لها أحوط من أودعه، واطلع من وجهه أنوار الفجر الذي جهل من ظن ان من غير مطلع، وآتاه ما لم يؤت أحدا، وأمات به غياً وأحيا رشداً، وأقامه للدين عاضدا فأصبح به معتضداً، نحمدته على ما آتاه من توفيق يذلل الصعب الجامح ويدني البعيد النازح، ويخلف على الدين من صلاحه الخلف الصالح، ويلزم آراءه جدد السعود الواضح، ويؤتية آيات الارشاد فأية نار قدح القادح، ونصلي على النبي محمد الذي أنجى أهل الايمان ببعثه، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادت يده بلسان ذي النعال الحاد<sup>(٧)</sup> وعلى الائمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الاحاد.

ومنه:

وإن الله سبحانه وتعالى ما أخلى دولة أمير المؤمنين التي هي محط الهدى، من لطف تلافى الحادثة بشعبها، ولما لم تكذ تنسى الحادثة في الأجل الملك المنصور أسد الدين شيركوه رضي الله عنه، نظر أمير المؤمنين في اصطفائك أيها السيد الاجل الملك الناصر لخدمته بعده لتسد في مقدمة الجيوش مسده، وتلحق به في المجد أولك، ونحمد فيك العواقب ولك، فاعلم هذا من أمره ورسمه، واعمل بموجبه وحكمه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

الثاني عشر: في مجيء نجم الدين أيوب الى ولده صلاح الدين بمصر.

لما ملك صلاح الدين الديار المصرية بالوزارة أرسل الى نور الدين يطلب أباه أيوب وأخوته وقربته، فأرسلهم مكرمين مع جماعة من الزامهم وأهل مودتهم، وشرط عليهم السمع والطاعة له واستقر أمره هنالك، وتمكن سلطانه، وخرج العاضد بنفسه للقاء أبيه أيوب، وبالغ في احترامه والاقبال عليه وقال: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾

[يوسف ٩٩] ولما اجتمعوا قرأ بعض المقرئين: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ إلى قوله: ﴿توفني وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠٠ - ١٠١].

ثم بعد ذلك أخذت دولة المصريين في الضعف، والدولة الايوبية في القوة، ولما اجتمع صلاح الدين يوسف مع أبيه سلك معه الأدب، وفوض إليه الأمر كله، فقال له: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر الا وأنت جدير به، فلا ينبغي ان تعبر مواقع السفارة، وحكمه في الخزائن كلها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على الخليج، وأعطاه وأهله الاقطاعات الجليلية بمصر، وتمكن صلاح الدين من البلاد، وضعف أمر العاضد بالكلية.

الثالث عشر: في ذكر ماجرى بين نور الدين وصلاح الدين.

قال صاحب تاريخ الدولتين: إن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين، ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره وقال: كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئاً بغير أمري، فكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت إليه الملك الناصر صلاح الدين، الا انه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه مافارق قبول رأيه وأشارته.

وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب، ولما ملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله، واعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم للملك الناصر ذلك، ويقال: إنه لما مرض قال: ما أخطأت الا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت الى

أصحابه فقال: إذا ما مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها.

وقال ابن أبي طي ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤله وتمضه، غير أن يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب، قال صلاح الدين: ولقد كان يعتمد نور الدين في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يصبر على مثلها لعلني أنضور أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

وقال صاحب تاريخ الدولتين: قد وقفت على كتاب بخط نور الدين يشكر فيه من صلاح الدين، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي، كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته:

«حسبي الله وكفى، وفق الله الشيخ الامام شرف الدين إلى طاعته وختم له بخير. غير خاف عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطلع على نيتي، وأنت تعلم نيتي كما قال عز من قائل ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد ٤٣].»

أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، الله تعالى جعلها دار اسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق، فله المنة والحمد، الا ان المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر واقليمها ماهي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وماتدخر الدموع الا للشدائد، وأنا ماكنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك، والان قد تعين علي وعليك أيضا ان ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها الا انت، ولا اقدر اولى امورها واقلدها

الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله، وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لاتبقى علي حجة، تصل أنت وولدك إلى عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام .

بموافقة صاحبي واتفاق منه، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً

الرابع عشر: فيما فعله صلاح الدين من المعروف بعد توليته.

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابه سجل به من ديوان الانشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين تتقدمه، آخرها سنة أربع وستين وخمسة، فكان مبلغه ينيف عن ألف دينار وألفي ألف اردب غلة، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، وأنبهي إليه ما يستأدى بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع، فأعاث أهل الحجاز وأوسعهم من العين والغلة، وذلك كله بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

الخامس عشر: في قتل المؤمن الطواشي زمام الدار.

قال العماد: وشرع صلاح الدين يوسف في نقص اقطاع المصريين،

فقطع منهم الزوائد من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسديه والصلاحية، لأن صلاح الدين يخرج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة، فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلا من التركمان عبر بالبئر البيضاء، فرأى مع انسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبه الفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه، نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، وثبت اعتصامه وعرف استسلامه، ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي، وخشي أن يشق على شق العصي العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه غضب، وعنه مغض لا يأمر فيه بسط ولاقبض، إلى أن استرسل واستسبل، وظن أن مانسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قريه يقال لها الخرقانية، وهي بقرب قليوب، فخلافيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعته بانقضاء دولته، فأنهض صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع من حياته لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وخمسةائة.

وفي تاريخ بيبرس: خرج مؤتمن الخلافة ذات يوم إلى بستان له بقلوب، فسير إليه جماعة من أصحابه فقتلوه وأتوا برأسه، ثم استعمل على أذمة القصور قراقوش، وهو خصي من ممالك عمه أسد الدين ليطالعه بها يجري في القصور.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان له قصر على النيل بالخرقانية من أعمال قليوب ذو بساتين، فخرج إليه للتنزه، فعلم صلاح الدين بذلك، فأرسل إليه جماعة فقتلوه وأتوا برأسه في التاريخ المذكور الآن. ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستتاب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش الأسدي.

السادس عشر: في وقعة السودانية.

ولما قتل مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، ثار السودان عند القصر ونادوا، وكانوا يزيدون على خمسين ألف، فنهض إليهم صلاح الدين، وكانت الوقعة بين القصرين، وقامت الحرب بينهم يومين، وصار السودان كلما التجأوا إلى محلة أحرقوا عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم جميعا، فلما أتاهم الخبر بذلك هزموا وركبتهم السيوف، وقتل منهم خلق كثير، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك، فمضوا إلى الجيزة، فعبّر إليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، وضعف أمر العاضد بالكلية، وتلاشى حاله، وخربت محلتهم، واتخذت بستانا، فأصبح أمرهم كأن لم يكن، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين، وكان صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئا من المال والرقيق والخيل، حتى أنه أرسل إليه يوما، وهو في بستان له يسمى الكافوري، يطلب منه فرسا، فقال: والله ما عندي إلا هذا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما، وأرسل الفرس إليه، ولزم العاضد بيته من ذلك اليوم حتى كان منه ما كان.

وقال ابن كثير: وحين قامت الحرب بينهم، كان العاضد ينظر من القصر، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقبل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره، فأمر شمس الدولة تورانشاه، وكان حاضرا للحرب باحراق منظره العاضد، ففتح بابها ونودي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بلادكم، فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا.

وفي تاريخ بيبرس: وأقاموا على الحرب أربعة أيام ليلا ونهاراً، وقتل من الجمعين خلق كثير، ولما علموا المغلوية هربوا بأجمعهم إلى الجيزة، فندب إليهم صلاح الدين أخاه تورانشاه فقاتلهم وهزمهم ولم ينج منهم الا الشريد، وأرسل إلى نواب البلاد بقتل من وجد منهم، وكان جوهر هذا سببا لزوال ملك الفاطميين، وكان سبب ملكهم اولا جوهر أيضا، وهو جوهر القائد الذي أرسله المعز من المغرب، كما ذكرنا مفصلا.

وقال العماد: ولما قتل مؤتمن الخلافة غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، فحسبوا ان كل بيضاء شحمة، وان كل سوداء فحمة، فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجاء ومقدمهم أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت به العسكرية من الجانبين، ودام الشر فيه يومين حتى حس الاساحم بالحين، وكلما لجأوا الى محلة احرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلاص السودان بعدها من شدة، ولم يجدوا الى الخلاص سيلا، وأينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة وكانت لهم المعمرة المعمورة، فأتى بنائها من القواعد، فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبل هذه النوبة أخوه الأكبر  
فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أنفذه إليه نور الدين من  
دمشق يشد أوده بمصر لما سمع بحركة الفرنج، وأهل القصر، فوصل  
القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وياشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها اثر عظيم.

السابع عشر: فيما مدح به صلاح الدين.

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنية له  
بالمملك وتعزية له:

أيوسف الحسن والاحسان خير من  
حوى الفضل والافضال والنهي والأمر  
ومن للهدى وجه النجاح برأيه  
تجلى وثغر الثغر من عزمه أفترا  
همى حوزة الدين الحنيف بحوزه  
من الخالق الحسني ومن خلقه اشكرا  
أبوه أبى الالعلاء وعمه  
بمعروفه عم السورى البدو والحضرا  
وطال الملوك شيركوه بطوله  
وما شاركوه فى العلى فحوى الفخرا  
بنو الأصفر الاقرنج لاقوا ببيضه  
وسمر عواليه من اياهم حمرا  
وما ابيض يوم النصر واخضر روضه  
من الخصب حتى اسود بالثقع واحمرا  
رأى النصر فى تقوى الاله وكل من  
تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب  
انبائه فيها كتاب ضمنه هذا البيت:  
ماكنت بالمنظور أقنع منكم  
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابها أبياتا منها:

يا هـل لسالف عيشتي بفنائكم  
من عودة محمودة ورجوع  
مدغبتم عن ناظري ما أذنت  
للقلب شمس مسرة بطلوع  
كنت المشفع في المطالب عندكم  
فغدوت اطلب طيفكم بشفيح  
أصبحت أقنع بالسلام على النوى  
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل منه كتاب ايضا ضمنه هذا البيت:  
وأثر دم مع الدر من قبل أيضا  
وقد حال مذبتم فاصبح يا قوتا  
فنظمت في جوابه ابياتا منها:

هنيئاً المـصر حوز يـوسف ملكها  
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا  
وما كان فيها قبل يوسف شاورا  
يماثل الاقتل داود جالوتا  
وقلت لقلبي ابشر اليوم بالنسى  
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئت

ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها:

بالمملك الناصر استنارت  
في عصرنا أوجه الفضائل  
على من حقه فـروض  
شكر الما جاد من نوافل  
يوسف مصر الذي إليه  
تشدد أماننا الروحاحل  
أجريت نيلين في ثراها  
نيل نجيع ونيل نائل  
ومانفيت السودان حتى  
حكمت البيض في المقاتل

الأبيات:

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الأعيان،  
وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:  
يا صلاح الدين الذي أصلح الفبا  
سدب العدل منه خطوب الزمان  
أنت أجريت نيل مصر الى الشا  
م نوالا أم سال نيل ثاني  
وعلى نيلها الكفيك فضل  
فهما بالنضار جاريتان  
وصلت أعطياتك الغر غزرا  
فتلقت أماننا بالتهاني  
خلع راققت العيون وراعت  
وغلا وصفها عن الامكان

- ١١٠٩٢ -

مذہبات كأنها خلع الرضوان  
قد أهديت لاهل الجنان  
مشرفات بطرزها الذهبيا  
ت الحسان الرفيعة الاثنان  
فالعمامات كالغمامات والطر  
ز زروق كثيرة اللمعان  
والموالي بهام من التمه والفخ  
ر على الدهر ساجبو الاردان  
كيف خص العماد بالادون المخ  
لق من دون عصبة الديوان

الآيات:

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:  
عبدك شمس الدولة المرتجا  
متظنر تشريفك المذهب  
وأعتب صلاح الدين في حالتي  
عساه بالاصلاح ان يعتبا  
عرفه ماتم فإني أرى  
من فضله للفضل ان يغضبا  
وكيف يرضى ذاك بعض الرضى  
ومجده بأباه كل الابا  
وقل له جاءته ملبوسة  
تخلفت من تبع في سبا  
عمامة رقت ورثت فما  
نشرتها الاوطارات هبا

قال المؤرخ: فوصل من صلاح الدين عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن  
العمامة التي قبلها.

وقال عرقلة في صلاح الدين وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره  
سلاماً:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا .  
شقي لم يبت الا حريصا  
أتى منك السلام لنا عموما  
وجودك جاءني وحدي خصوصا  
وكنت كيوسف الصديق لما  
تلقي منه يعقوب القميصا (٨)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق،  
فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره  
بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي  
زمانا على الحر الكريم يجور  
ترى أبصر الألف التي كنت واعدني  
بها في بيدي قبيل الممات تصير  
وهيهات والافرنج وبينكم  
سجاج قتييل دونه وأسير  
ومن عجب الايام انك ذو غنى  
بمصر ومثلي بالشام فقير (٩)

وقال ايضا:

قل للصلاح معيني عند اعساري  
يا ألف مولاي أين الالف دينار  
أخشى من الاسران حاولت ارضكم  
وماتفي جنة الفردوس بالنار  
فجد بها اعضاءي مسطرة  
من بعض ما خلف الطاغى أبو الطاري

حمرًا كأسيا فكم غبرا كخيلكم  
عتقا ثقالا كأعدائي وأطهاري (١٠)

وأنفذ له عشرين دينارا من مصر فقال:  
يا مالكا ما برحت كفه  
تجود بـ المال على كـ  
أفلح بالعشرين من لم يزل  
في رأس عشرين من الكهف  
يا ألف مـ ولاي ولكنها  
محبوبة من جملة الألف (١١)

وذكر العماد في الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر، فأعطاه ذلك، وأخذ له من أخوته مثل ذلك، فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، ومات بدمشق في سنة ست أو سبع وستين وخمسة رحمة الله.

الثامن عشر: في أشياء ملتقطة فيما يتعلق بالأبواب المذكورة في أمر شاور.

وكان متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دفن الصالح طلائع بن رزيك واستوزر ابنه رزيك أرسل إلى عمته العاضد فخنقها، واجتمع إلى رزيك أولاد عمته ومن جملتهم عز الدين حسام، فعزل شاور، فعصى عليه، وجمع العريان وأهل الصعيد، وسار إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رزيك تحت الليل فضل الطريق وتاه، فوقع عند أطفيح وشم بيوت عرب، فقبضوا عليه وحملوه إلى شاور، وأخرجت إليه خلع الوزارة وتم أمره، وأكرم شاور رزيك وصلب الذي أتى به، ونادى عليه: هذا جزاء من لا يعى الجميل، وكان للصالح إليه احسان، وتفرق آل رزيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك

بني رزيك، بأموال، وصار إلى حماه فأقام بها، واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه، ثم أراد تقي الدين أخذها منه فقال: من العجب أن الفرنج تقي لي بردها وتأخذها أنت مني فكف عنه.

وكان لشاور ثلاثة أولاد: طي، والكامل، وسليمان، فتبسطوا على الناس فمجوهم، وكان ملهم وأخوه ضرغام مز صنائع الصالح بن رزيك، فلما شهدا ميل الناس عن شاور بسبب اولاده أخذاهما. مراسلة رزيك بن الصالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الورور، وبلغ ذلك طيا، فدخل على أبيه فأخبره بهذا، ثم قال: تلاف حالك بقتلك رزيك، فأنكر عليه، فتركه ولده طي، ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور فقامت قيامته، ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاء من الامراء وزحفا بالعساكر الى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة، وهرب الى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلها وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جيلا، واستقر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ثم بلغه أن جماعة من الامراء حسدوه وكاتبوا شاور وهو في الشام، فأخذ في إعمال الخيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا، ولم يتعرض إلى أموالهم ولا لمنازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا، ويقال إنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الاسباب في هلاكه وخروج دولة المصريين، لانه اضعف عسكر مصر بقتل الامراء.

وأما شاور فإنه لما وصل الى بصرى اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة الى تلقيه، وأنزله بجوستق الميدان الاخصر، وأحسن ضيافته، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أمر نور الدين لجماعة من أعيان دمشق أن يذهبوا

إليه ويسأله عن حاجته، فاجتمعوا به، وقال بعد كلام طويل: ان رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فأجاب نور الدين الى ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته في أحسن زي، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقى في و. الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين الى قلعة دمشق، واخذ في وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الامر أنشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك ابن النحاس يظهر فيه الطاعة، فظاهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرقيتي الفرنجي، وأخذ جميع ما كان معه، وانهم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار إلى مصر.

#### التاسع عشر: فيما يتعلق بأسد الدين.

ولما توجه أسد الدين إلى مصر وقرب منها نزل بمن معه على تل في الجوف قريب من بلبس يعرف بتل بسط، وضربوا خيامهم هناك، ولما علم ضرغام بذلك جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجمع العساكر، وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدرة، وهو على يومين من القاهرة فإنهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، فأمر ضرغام الامراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر قال لشاور: يا هذا لقد غررتنا وقتلت: إنه ليس

بمصر عسكر فجئنا في هذه الشذمة، فقال شاور: لايهولنك ماتشاهده من كثرة الجموع فأكثرهم الحماله والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا همي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الامراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم وقف الفريقان مصطفين من غير حرب، إلى أن همي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقيدهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس فنزلوا على القاهرة وقاتلوا أياما وارسل شاور الى العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وأما ضرغام فإنه خرج من باب زويلة، والعمامة تلعه وتصبح عليه، فلحقه رجل من أهل الشام قطعنه وأرداه ونزل إليه وحز رأسه، وحمله إلى أسد الدين فصعب على أسد الدين، وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهها أخوا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وكذلك خرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيام، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه: شاور ثلاثين ألف دينار، وقال: ترحل الآن في أمن الله ودعته فلما سمع أسد الدين ذلك ارسل اليه: ان نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقبيا عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، وقال شاور: أنا ماقررت شيئا، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا الى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة

فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين: انا لايمكنني مخالفة نور الدين ولا انصرف الا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق أبواب القاهرة، واخذ في الاستعداد للحرب، واستعد أسد الدين ايضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش الى بلبليس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، ويكون جميع ذلك في بلبليس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الأفرنج مري يستنجده ويقول له: ان أسد الدين طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصل في البلاد طمع فيها، ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لكم معهم عيش ولاقرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار، وقرر له شيئا لقضيم دوابه وشيئا لاستباريته، فخرج مري من عسقلان في جموعه الى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرون ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة جاء إلى بلبليس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبليس وأحاط بها محاصرا لاسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، فتشوش من ذلك، ثم عمل حيلة حيث جمع أعلاما للفرنج، وكان قد أخذها منهم وأعطاهما إلى نجاب وقال له: تحيل حتى تدخل إلى بلبليس وتعطي هذه الاعلام لاسد الدين ينشرها على أسوار بلبليس، فإن ذلك مما يفت في اعضاء الكفار، ففعل ذلك، فلما رأى الأفرنج الأعلام خافوا على بلادهم وسألوا الاذن من شاور في الانفصال، فانزعج شاور لذلك واستمهل منهم أياما وجمع أمراء المشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل الامير شمس الخلافة بذلك، فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى، وأقام أسد الدين بظاهر بلبليس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك خرج

يتربح خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، فأحسَّ أسد الدين بذلك، وسلك طريقاً من خلف المكان الذي هو فيه، وشق إلى الغور، وخرج إلى البلقاء، وسلمه الله منه، ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين، وأخبره بالاحوال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، وتتبع من علم أنه بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشتين الكردي، وأقطعه شطنوف وقتل جماعة من أهل مصر وشرذ آخرين، ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول لسنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية، وكتب أخباره، فما راع شاور إلا ورود كتاب مري يعرفه فيه بأن أسد الدين قصد ديار مصر وخرج عن دمشق، فطلب شاور منه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على ما كان في العام الماضي، فسار مري في عساكر الفرنج إلى مصر، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع به، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين، وعلم أسد الدين باجتماعهم على بلبس، فنكب عن طريقهم وأم الجبل، وخرج على أطفيح وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره والفرنج صحبته يقفون أثره، ولما علم أسد الدين بذلك اندفع من بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها، وعدى إلى البحر الغربي، وأدرك شاور بعض ساقته ومسقطي عسكره فأوقع بهم، وأحضر أيضاً مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجزيرة وخيم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الجعفريون واللاحيون القرشيون، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا احلف بالله وبكل يمين أني لأقيم ببلاد مصر ولا أعاد إليها أبداً، وما أساءل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهذا العدو قد حصل في هذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلصه عسير فتجتمع معي نستأصل شأفته، وما

أظن ان يكون غنيمة أبدا في الاسلام مثل هذه، فقتل شاور الرسول وقال: ماهؤلاء فرنج هؤلاء فرج، ثم أعلم الفرنج بذلك، ونزل شاور بعد ذلك في اللوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجزيرة والجزيرة، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين، ولما رأى أسد الدين ذلك، كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام، فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيا، فظهر في هذه الفتنة، وكان قد أرسل الى اسد الدين خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، ثم وصل الى أسد الدين رسول ابن مدافع وأخبره بقرب شاور، وبأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وماثقل حملة، وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر بنهبها فنهبت، وسار ليلا بالمشاعل حتى أتى على الأشمونين، وأمر عسكره أن يقفوا على تعبئة وأصبحوا على ذلك والتقوا، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة، وانهمزوا وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين: فريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فداخلهم الضعف من هذا الطريق، ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا ان لا منجا لهم الا الصبر، فتحالفوا على الموت وحلوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم، فلم تزل الحرب قائمة الى الليل، فولت عساكر الفرنج والمصريين الادبار، وكاد ملك الفرنج مري أن يؤسر، وصار شاور ومن معه الى مينة ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكندرية فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزبير متوليا ديوانها، فحمل الى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح، وخاف أسد الدين أن يحصره شاور والفرنج، فأمر صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر، ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية، ورحل في أقوياء العسكر قاصدا الى الصعيد، ونزل

الفرنج وشاور على الاسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال، ولما سار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام رمضان، واتصل به اشتداد الامر على الاسكندرية فرحل من قوص الى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد، وبلغ ذلك شاورا، فرحل هو والفرنج واضطر الى الصلح، وضجرت الفرنج أيضا، وتوسط ملك الافرنج في ذلك، فتقرر امر الصلح على ان شاورا يحمل الى اسد الدين جميع ماغرمه في هذه السفرة، ويعطي الفرنج ثلاثين الف دينار، ويعود كل منهم الى بلاده، وطلب صلاح الدين من ملك الافرنج مركبا يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ اليه عدة مراكب.

قال الشريف الادريسي: كنت في الجملة ممن خرج في المراكب، فلما وصلنا الى ميناء عكا اخذونا واعتقلونا في معصرة القصب الى ان وصل الملك مري فأطلقنا، فخرجنا الى دمشق، وخرج صلاح الدين من الاسكندرية [الى عمه] ثم سارا من بلاد مصر وفي قلب أسد الدين من مصر، لما شاهدها وشاهد من مغلاتها.

العشرون: في ذكر عود الفرنج إلى مصر، وعود أسد الدين إليها وماجرى بعد ذلك.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين طمع مُري ملك الأفرنج في مصر ووعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها، فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الداوية والاستبارية فأجابوا إلى الخروج معه، فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيلته وفرق قراها على أجناده، وكان اللعين لما دخل ديار مصر أقام من أصحابه من كتب له أساء القرى جميعها، وتعرف له خبر ارتفاعها، ثم سار حتى نزل الداروم، فلما سمع شاور بذلك قامت قيامته وأرسل أميرا من أمرائه يقال له بدران فسأله عن

سبب مجيئه فتلكاً عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضىخة على أن يوري عنهم ولايكشف لشاور حالهم، ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم الحيلة على المصريين ويعلم شاورا إنه انما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما سمع شاور بذلك أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، وقال له: بدران غشني ولم ينصحنني وأنا واثق بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مُري، وكان بينهما مؤانسة، فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغدار، والا مالذي أقدمك الينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى زوج أخت الملك الكامل ابن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض العهد، فقال له الملك: القول الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرجنا نتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأى شيء طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له الملك: نحن نازل على بلييس إلى ان تعود، ثم انه سار خلفه لايلوي على شيء حتى خيم على بلييس في شهر صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة، ثم قاتل بلييس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرّب أكثرها، وأحرق جل أدرها، ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمح ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتمكم شكرا لله عز وجل على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلاشك، ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل إلى جهة مينة حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى

فاقتسموهم، وبقي أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في ملك الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير، والملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه .

ولما جرى ذلك وبلغ شاور، اجتمع بالعاضد وقال: إن البلاد قد أخذت منا فاكتب الى نور الدين واطلب منه العونة، فكتب جميع ذلك، وسخم شاور أعالي الكتب بالمداد، ولما بلغ نور الدين ذلك انزعج انزعاجا عظيما وانفذ اسد الدين وكان من ذلك ما ذكرناه.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وبلغ أجرة الجمل ثلاثين دينارا، وترك الناس أكثر أموالهم فنهب واحرقت مصر في تاسع رجب كما ذكرنا، ثم إن الافرنج نزلوا في بركة الحبش وتخطفوا من ظفروا به، ثم رحلوا فنزلوا على باب البرقيه نزولا قاربوا به البلد حتى صارت سهام الجرح تقع في خيمهم، فقاتلوا البلد أياما، فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة إلى ان تصل عساكر الشام، فأنفذ الى مري لعنه الله رسالة طويلة وفيها: ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه إليك ولا أخذه الا بعد ان يقتل من الفريقين عالم عظيم، وماتعلم انت ولا أنا لمن الدائرة، والرأي ان تحقن دماء اصحابك ودماء اصحابي، وتحصل شيئا ادفعه لك، واستقرت المصانعة على اربعمائة ألف دينار، وقيل الفي ألف دينار، فعجل له منها مائة ألف دينار فأجاب مري الى ذلك، وانعقدت الهدنة، ورحل إلى بركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة الف دينار، ثم اخذ يباطله بالباقي انتظارا لقدم العساكر، ويوهم انه يجمع الاموال، فلم يشعر الفرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم، فلما رأوهم رحلوا الى بلبيس، ونزل أسد الدين بالمقس، ثم رحل ملك الافرنج ونزل على فاقوس، واتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس، ثم لما رحلت

الفرنج بالكلية نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ثم بعد ذلك جرى ماذكرنا في الابواب الماضية.

### ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن نور الدين محمود بن زنكي ملك قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام ملكشاه، وهي من أمنع القلاع مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وسبب ملكه إياها ان صاحبها نزل يتصيد فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه الى نور الدين في سنة ثلاث وستين وخمسةائة، فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه فخر الدين مسعود بن ابي علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين ابن الداية، وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا فلم يبد لها فيها مطمع فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر بنفسه في حفظها فقبل قوله وسلمها، وأخذ العوض عنها: سروج وأعمالها، والملاحة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وكان مالك العقيلي هذا آخر بني مالك بالقلعة المذكورة.

### ذكر من توفي فيها من الاعيان:

ياروق بن ارسلان التركماني: توفي في هذه السنة، وكان مقدا كبيرا واليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلق، وكان

يسكن بظاهر حلب، وبنى على نهر قويق هو واتباعه عمائر كثيرة، وتعرف الآن بالياروقية، وهو مشهور هناك.

وقال ابن خلكان: ياروق بن ألب ارسلان التركماني، كان مقدما جليل القدر في قومه، وكان عظيم الخلق هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبليّة، وبنى على شاطئ نهر قويق، فوق تل مرتفع هو وأهله واتباعه ابنية كثيرة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي مسكونة أهلة يتردد أهل حلب إليها في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضر، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والانس، وياروق بفتح الياء آخر الحروف، وبعد الالف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي آخره قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف، وفي آخره قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف.

مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مات في هذه السنة ببغداد، ودفن بداره التي عند النظامية، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء.

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والستين بعد الخمسةائة

استهلت هذه السنة والخليقة هو المستنجد بالله، وصاحب مصر العاضد، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد كتب الى نور الدين محمود بن زنكي يستنجد على الفرنج لانهم حاصروا مدينة دمياط في صفر من هذه السنة خمسين يوما بحيث ضيقوا على اهلها وقتلوا منهم خلقا لا يحصون، وهم في أمم لا يحصون كثرة، قد اجتمعوا من البر والبحر

رجاء ان يملكو الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف.

وكتب صلاح الدين الى نور الدين يطلب منه ان يرسل اليه بامداد من الجيوش فانه ان خرج من مصر خلفه اهلها بسوء، وان غفل عن الفرنج اخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم يتقوون به على اخذ مصر، فارسل اليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضا، واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد اليها في جيشه فجاس خلال الديار، وقتل من رجالهم وسبى من نسائهم واطفالهم شيئا كثيرا، واجلت الفرنج عن دمياط لانه بلغهم ان نور الدين رحمه الله قد حصر بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم وسبى كثيرا من نسائهم، وغنم مالا جزيلا من اموالهم.

ولما اجلت الفرنج عن دمياط فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحا شديدا، وانشد الشعراء في ذلك كل منهم قصيدا.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها، وذلك أن أسد الدين لما ملك مصر خاف الفرنج بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال فنزلوا دمياط ظنا أنهم يملكونها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برا وبحرا، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك، ويشكو إليه أنه إن خرج من القاهرة ما يأمّن أن تنقض الشيعة أمرنا، فسير إليه نور الدين عسكريا نجدة، وسار بنفسه لقصد الفرنج، فصعد الى الكرك وحاصرها، وجاءت الفرنج، الى بيسان، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم، فرجعوا الى عكا، فعاد نور الدين الى دمشق، ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا واشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار

من المسلمين، واسروا صاحبه، وكان مملوكا لنور الدين يسمى ختلج العلم دار وأولاده.

وفي المرأة: وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر، وجدوا في القتال وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمجانيق، ويزحفون اليها ليلا ونهارا، ووجه اليها صلاح الدين العساكر مع شهاب الدين خاله، وطلب من العاضد مالا فبعث اليه بشيء كثير، فكان صلاح الدين يقول: مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

واشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات، ووقع فيهم الفناء فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير وكان رحيلهم في ربيع الآخر، وفي شعبان سار نور الدين الى الكرك فنازله وضربه بالمجانيق، واجتمع ملوك الساحل وجاءوه، فتأخر الى البلقاء.

وقال القاضي ابن شداد: لما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان، وقصده فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن البداية بحلب في رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيرا من البلاد، وسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط، أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال الفرسان والميرة والآلات والسلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيرا متحكما لايرد امره في

شيء، ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين رحلوا خائين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلتهم، وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد، بحمد الله تعالى.

وقال العماد: وأقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان الى دمياط فدخلها، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها، واتصل الحصار، وتواصلت الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي عشرين من ربيع الأول.

قال صاحب تاريخ الدولتين: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وبلغني ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعلم نور الدين ان الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال: يارسول الله ربها لا يصدقني فاذا لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولا تنصر محمودا، ومن هو محمود الكلب حتى تنصره، قال: فانتبهت ونزلت الى المسجد، وكان من عادة نور الدين ان ينزل اليه بغلس ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة الا انني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها، والح علي في ذلك، فقلتها

فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وأرسل نور الدين الى العاضد كتابا يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وقد كان ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك في مصر، والاقتصار على أسد الدين وألزامة وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليه الا لعلمه بأن قطاريات الفرنج ليس لها الا سنهام الاتراك، فان الفرنج لا يرعبون الا منهم، ولولاهم لزداد طمعهم في الديار المصرية ولحصلوا منها على الامنية، فلعل الله ان ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التي لا تحصى ولعمارة اليمنى قصيدة منها قوله:

من شاكروالله اعظم شاكر  
ما كان من نعمى بنى ايوب  
طلب الهدى نصر اقبال وقد أتوا  
حسبي فأنتم غاية المطلب  
جلبوا الى دمياط عند حصارها  
عز القوي وذلة المغلوب  
وجلوا عن الاسلام فيها كربة  
لو لم يجلوها أتت بكروب  
فالناس في أعمال مصر كلها  
عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فارغا  
وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتیان الشاغوري من قصيدة:

- ١١١٠ -

مصرييوسفهاأضحت مشرفة  
وكل أمر لها بالعدل منضبط  
وحين وافى صلاح الدين أصلحها  
فللمصالح من أيامه نمط (١٢)

### ذكر بقية الحوادث:

منها أنه أبطل الأذان بمصر «حي على خير العمل» وأمر صلاح الدين ان يذكر في الخطبة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومنها أن شهاب الدين محمد بن ايلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة، سار في عسكره، وهوماتا فارس الى نور الدين، وهو بعشتر، فلما وصل الى قلعة اللبوة من عمل بعلبك ركب متصيذا، فصادف ثلاثمائة فارس من الافرنج قد شنوا الاغارة على بلاد الاسلام فانفصلوا واقتتلوا فانهمز الفرنج، وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والاسر، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى الى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر للقاءه، وكان في جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الاستار صاحب حصن الاكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، ولانه كان شجا في حلوق المسلمين، وكذلك ايضا كان فيها رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازدادوا سرورا، وكان ذلك في سابع عشر شوال من هذه السنة.....

ومنها أن في ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الافضل نور الدين علي، وفرح به فرحا عظيما، وخلع واعطى وتصدق بها بهر به العقول.

ومنها أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان مسيره من دمشق

الى ولده صلاح الدين بمصر في هذه السنة وقد ذكرناه في السنة الماضية،  
ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم في ذلك قوله:  
في مشرق المجد نجم الدين مطلع  
وكل أنبائه شهب فلا أفلوا  
جاءوا كيعقوب والاسباط إذوردوا  
على العزيز من ارض الشام واشتملوا  
لكن يوسف هذا جاء أخوته  
ولم يكن بينهم نزع ولا زلل  
وملكوا ملك مصر في شاخته  
ومثلها الرجال مثلهم نزل

ومنها ان نور الدين رحمه الله خرج في هذه السنة إلى داريا فأعاد  
عمارة جامعها، ومشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

قال في المرآة: وفي هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم  
الآن، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني فأحرقه الافرنج لما نزلوا على  
داريا في أيام مجير الدين أبى، فعمر نور الدين - في هذه السنة - هذا  
الجامع في وسط القرية.

## ذكر الأمور المزعجة:

### منها الزلزلة الكبرى:

قال ابن الأثير: وفي ثاني عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة  
عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة  
والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت  
بعلبك وحمص وحماه وشييزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها،  
وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد

والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد ويخرب أسوارها وخلوها من أهلها، فرتب بعلبك من يحميها ويعمرها وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج، ولاسيما بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا، ثم أتى إلى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها قد أتت عليها، وكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهرها من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يقدر قدره.

وأما بلاد الفرنج - خذلهم الله - فإنها أيضا فعلت فيها الزلزلة قريبا من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الافرنج المجاورة لبعرين كحصن الاكراد وصافيتا والعريمة وعرة وقد وافقت الزلزلة الفرنج يوم عيدهم في الكنائس، ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ [النحل ٢٦]، وذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة:

هل لعاني الهوى من الأسرفادي  
ولساري ليل الصبابة هادي

جنبوني خطب البعاد فسهُل  
كل خطب سوى النوى والبعاد  
كنت في غفلة من بين حتى  
صاح يوم الاثيل بالبين حادي  
قد حللتهم من مهجتي في السويدا  
ومن قلبي محل السواد

إلى أن قال:

أتمنى بالشام أهلي ببغداد  
وأين الشام من بغداد  
وما اعتياضي عن حبهنم يعلم الله  
تعالى الابحس الجهاد  
واشتغالي بخدمة الملك العادل  
محمود الكريريم الجواد  
أنا منه على سرير سروري  
راتع العيش في مراد مرادي

إلى أن قال:

هم نعم الملاذ من نائب الدهر  
ونعم المعاذ عند المعاد  
جل رزء الفرنج فاستبدلوا من  
به بلبس الحديد لبس الحداد  
فرق الرعب منه في أنفاس الكف  
سارين الأرواح والأجساد  
سطوة زلزلت بسكانها الأرض  
وهدت قواعدا الطواد  
أخذتهم بالحق رجفة باس  
تركهم صرعى صروف العواد

خففت من قلاعها كل عال  
وأعدت تلاعها كالوهاد  
أنفذ الله حكمه فهو ماض  
مظهر سر غيبه فهو وبادي

وفي المرآة: وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا أخرجت قلاع المسلمين  
وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت الى اللاذقية وجبلة،  
وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل  
أصابه حجر وهو على درج جيرون لان أهلها خرجوا الى الصحراء، ثم  
امتدت الزلزلة، وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين  
والرها وحران والرقّة وماردين وغيرها، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة  
وجميع بلاد العراق، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم.

ومنها نزول الافرنج على دمياط وقد ذكرناه مفصلا...

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والستين بعد الخمسةائة:

### ماجريات نور الدين محمود:

وهي أنه سار الى الرقة فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار،  
وسلمها الى زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي،  
ثم سار الى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوما وأقرها لابن أخيه سيف  
الدين غازي بن مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الاخرى، وأمر بعمارة  
جامعها وتوسعته ووقف على تأسيسه بنفسه وجعل له خطيبا ودرسا  
للفقه، وولى التدريس للفقير أبي بكر البرقاني تلميذ محمد بن يحيى تلميذ  
الغزالي، وكتب له منشورا بذلك، ووقف على الجامع قرية من قرى  
الموصل، وذلك كله باشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وكانت له

زاوية يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر عنده الملوك والامراء والعلماء ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه يستشير في اموره ومايعتمده من المهمات، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع مافعله من الخيرات، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذ معه الى دمشق، فأقطعه اقطاعا حسنا وكان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الاسلام، وكان يقال: ان له كنيسة في جوف داره، وكان سيء السيرة في حق العلماء. وخاصة المسلمين، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوي الشتاء فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يوما، فلما كان آخر ليلة أقام بها، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال اعداء الله، فنهض من فوره الى السفر، وما أصبح الا وهو سائر الى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان على سنجار ونصيبين والخابور فاستتاب فيها ابن أبي عصرون نوابا من أصحابه.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة اتصل بنور الدين أن شهاب الدين غازي ابن أخيه صاحب الموصل قد فوض أموره الى فخر الدين عبد المسيح، وأنه استولى وقام بالامر وتحكم، فأبغى لذلك وكرهه وعظم عليه لانه كان يبغض فخر الدين المذكور لما بلغه من خشونة سياسته، وقال: انا أولى بتدبير اولاد أخي، وسار عند انقضاء الغزاة جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك نصيبين، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المناجيق وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين، وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم، فسار الى

الموصل فأتى مدينة بَلَد، وعبر الدجلة فسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ابن أخيه قد أرسل عز الدين مسعود بن قطب الدين أخاه الى أتابك شمس الدين، ايلدكز صاحب همذان وأذربيجان وبلد الجبل وأصفهان والري وتلك الأعمال يستجده على عمه نور الدين، فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض للموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لاولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا بالفرنج، وهم أشجع العالم، ولي مثل ربع بلادك، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم ولايجل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا حفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

وعزم من بها من الامراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد لنور الدين، فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين في تسليم البلد اليه على ان يقر بيد سيف الدين غازي، ويطلب لنفسه الامان، فأجابه الى ذلك وشرط ان يأخذ فخر الدين معه الى الشام، ويعطيه عهده اقطاعا يرضيه، فسلم البلد في جمادى الاولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر بعمارة جامعها، ورتب فيها خصيا له يقال له كمشتكين، وأمره بأن لاينفرد عن سيف الدين غازي بقليل من الأمور ولابكثير، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يوما، وعاد الى الشام.

وفي تاريخ الدولتين: وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دزدارا في قلعة الموصل، ثم قسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين اولاده

بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخلها خلعها على سيف الدين.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال: أنست بك، وأمنت إليك، وأنا غير مختار لفرقتك، وأمره ان يروح في الرسالة الى الخليفة، فمضى وسار على البرية بخفير من بني خفاجة، فوصل الى الخليفة، وقضى حاجته، ثم رجع الى نور الدين، وهو يحاصر سنجار، فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: وحضر مجاهد الدين قيباز صاحب اربل الى خدمة نور الدين بالموصل.

### ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب:

منها: أن صلاح الدين عزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، واستتاب في سائر الاعمال شافعية.

وفي تاريخ قضاة مصر: ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمداني الماراني الكردي الموصللي، وكان قاضي الغربية، قدم من المشرق الى مصر فولاه صلاح الدين رحمه الله، وكان عنده بمكان.

وفي تاريخ الدولتين: ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ومنها: ان صلاح الدين خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان،  
وهجم ربض غزة، ثم رجع الى القاهرة.

وفي تاريخ بيبرس: في هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير الى  
الساحل غازيا، فمضى واغار على عسقلان والرملة، فأتاه ملك الفرنج  
فقاتله وهزمه، ونجا بنفسه، ثم رجع الى القاهرة.

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق  
فيها أهله، فأشفق عليها، وأحب ان يجتمع بها شمله، فخرج في النصف  
من ربيع الاول، وكانت بأيلة قلعة في البحر، قد حصنها أهل الكفر،  
فعمر لها مراكز حملها الى ساحلها على الجمال، وركبها الصناع هناك  
وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، واستحلها  
واستباح بالاسر والقتل أهلها، وملاها بالعدد والعدد وحصنها بأهل  
الجهاد والجلاد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة،  
ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الاولى.

ومنها أنه سار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان  
ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه،  
وعم أهلها باحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

ومنها انه كان بمصر سجن يعرف بدار المعونة، فهداها صلاح الدين،  
وبناها مدرسة للشافعية، وبنى بها أيضا مدرسة للملكية، وكانت دار  
العزل، وكان ذلك في النصف من محرم هذه السنة، واشترى ابن أخيه  
تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارا كانت تعرف بمنازل العز،  
فجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة وحمام الذهب وغيرها،  
وكان ذلك في النصف من شعبان، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار  
شمس الدولة أخو السلطان على العربان بالصعيد، ثم دخل القاهرة في  
عاشر شهر رمضان.

ومنها أن صلاح الدين شرع في هذه السنة في عمارة سور القاهرة لانه كان قد تهدم اكثره وصار طرقا لايرد داخلا ولاخارجا، وولى أمره لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الاذان «حي على خير العمل» وشرع في تمهيد اسباب الخطبة لبني العباس كذا ذكره ابن أبي طي.

ومنها أن شمس الدولة طلب من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وزاد على اقطاعه نويش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

ومن جملة الحوادث في هذه السنة أن في نصف شعبان هبت ريح شديدة عظيمة، ورعدت السماء بقعقة لم يسمع بمثلها، فخر الناس على وجوههم.

### فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والستين بعد الخمسائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والخليفة بمصر العاضد، والوزير بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ولكنه في الحقيقة سلطانها، وليس لأحد معه كلام لا من أمرائها ولا من أعيانها، والعاضد تحت حكمه وقهره، ومع هذا قطعت الخطبة باسمه وخطب باسم المستضيء الخليفة، وعقيب ذلك مات العاضد، والكلام فيه مفصلا على أنواع:

الأول: في قطع خطبته:

قطعت خطبته من ديار مصر في محرم هذه السنة، وسبب ذلك ان صلاح الدين لما ثبت ملكه في البلاد، وأمن السودان والأجناد، وضعف أمر العاضد، وصار قراقوش حاكما في قصره، كتب نور الدين إلى صلاح

الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، وقطع خطبته، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك، ولما وصل رسول الخليفة الى نور الدين بذلك سيرنور الدين كتاب الخليفة وكتابه إلى صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأهله والخطبة للامام المستضيء فجمع صلاح الدين الامراء وشاورهم في ذلك، فمنهم من خوفه، ومنهم من هون عليه، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم وصعد المنبر قبل طلوع الخطيب، ودعا للامام المستضيء فلم ينكر أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء.

وفي تاريخ الدولتين: استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسائة بإقامة الخطبة في الجمعة الاولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها.

وقال فيه أيضاً: إن صلاح الدين لما تمكن في الديار المصرية وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاماً لافسحة فيه، واتفق ان العاضد مرض، واستشار صلاح الدين الامراء فاختلّفوا فيه كما ذكرنا، وكان قد دخل في مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم.

قال ابن الأثير: وقد رأيناه بالموصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: انا ابتدء بها، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد عليه ذلك، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم يتطح

فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الايام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بذلك على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبي المعالي بن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديدا، وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

وقال ابن الجوزي: ووصل يوم السبت ثاني عشرين المحرم ابن أبي عصرون رسولا يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر وضربت السكة باسمه، وخلع على الرسول وأنكمدت الروافض، وقد صنف في هذا كتابا سمته «النصر على مصر» وعرضته على الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

وقال العماد: وشيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وأمرني بإنشاء بشارة عليه، تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام.

قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:  
قد خطبنا للمستضيء بمصر  
نائب المصطفى إمام العصر  
وخذ لنا النصر العـضـد العـ  
اضد والقاهر التدين بالقصر

وأراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

وقال العماد في الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة  
وزير الخليفة كنعته ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس  
فأستبشرت وجوه النصر  
وتركنا المدعي يدعو ثورا  
وهو بالذل تحت حجر وحصر  
وتباهت منابر الدين بالخطب  
—ة لله أشمي في أرض مصر  
ولدينا تضاعفت نعم الله  
وجللت عن كل عد وحصر

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين  
صندل - وهو من أكابر الخدم - المقتضوي، ومعه التشریف لنور الدين  
والكتاب للعماد ليقراه، فتناوله منه الموفق ابن القيسراني وكان عنده في  
مقام الوزير، فقرأه.

وذكر في «عبرة أولى الأبصار»<sup>(١٣)</sup> أن الخليفة سير إلى نور الدين الخلع  
ومعها سيفان، إشارة إلى تقليد مصر والشام، وسير معها طوقاً زنته ألف  
دينار، وبعث أيضاً إلى صلاح الدين تشريفا أقل من تشریف نور الدين،  
فلبس صلاح الدين ذلك التشریف، فركب به في الديار المصرية، وهي  
أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بني عبيد عليها،  
وأما نور الدين فكذلك لما لبس التشریف خرج إلى ظاهر دمشق حتى  
انتهى إلى الميدان الأخضر، ثم عاد.

الثاني: في كتاب صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بخط القاضي  
الفاضل يهنيه بفتح مصر، أوله:

﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ [ياسين ٥٨] ﴿يبرهم ربهم برحمة منه  
ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ [التوبة ٢١] وصلوات الله التي  
تنزل بها الروح الأمين وتشيعها الملائكة بالتأمين على مولى الأمة ومولى  
النعمة، ووالي الامر المصون بقاؤه في عقبه، وولي الله الذي ﴿لاخوف  
عليهم﴾ [البقرة ٢٦٢] ولاخوف به، الخليفة على الحقيقة، والامام الذي  
يحمي من دون الله الحقيقة على الحقيقة، ووارث السقايتين: زمزم  
والكوثر، والولائتين: السرير والمنبر، والدعائين: اليوم وفي المحشر،  
والشرفين: المشعر والمعشر، والطرفين: المشهد الاول والمشهد الاكبر،  
والمقامين: مقام ابراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما وسلم أبدا سرمدًا،  
والشعارين: الابيض في القلب والاسود في اليد، والخلدين: في دار  
السلام ودار السلامة، والموطنين: مقام الامامة ودار المقامة، والشفاعتين:  
سالفا في أهل العمار، وآنفا في أهل النار، والسلامين: سلام لكم من  
ألسنة الابرار و﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [ارعد ٢٤]  
على الخليفة ابن الخلائف، على رغم من رضي أن يكون مع الخوالف،  
وابن الأئمة المشهورين في المناظر والمواقف .

مولينا ومولانا الامام المستضيء بالله أمير المؤمنين، صلوات الله على  
تلك الأنوار القدسية يتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية، والحمد لله  
الذي وفي الدين دينه المسؤول، وأغمد عن أهله سيف الفتنة المسلول،  
فأورث أمير المؤمنين حقا كان به مظلولا، وأطال يده إلى استيفاء طائلة  
كان دم الحق بها مظلولا، وكتاب المملوك صادر الى المقر الأشرف  
الأصيل، من شرفه لشرف الرسول رسيل، والاسم الشريف المستضيء به  
قد صدحت منابره وعروشها، وطرزت المدائن والملابس والدنانير

والدراهم رقومه ورقوشه، وجهزت إلى بلاد الكفار في العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه، والزمن قد وقته السكينة لا الوجوم، والكواكب قد همت بأن تتساقط ايشار الضرب لا ايثار الرجوم، ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ما أجمله، وتحصيل ما منعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله، راجيا ان يناله من الملاحظات النبوية ما يجعل له سلطانا، ويمكن في قلوب الاعداء والاولياء مكانا، حتى يحفظ على الخلافة من لا يعنيه الا إياها، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامرها وقضايها، ويستضيف لها نصرا الى نصر، ويستتجز لها ما كتب ﴿في الزبور من بعد الذكر﴾ [الأنبياء ١٠٥]، نوه الله باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى، وطبق بدعوته المعمورة حتى لا يستثنى مكان بالأ، وقلص به الامة ضلالة ومد عليه ظلا، ان شاء الله تعالى.....»

وفي أيام العاضد وصل اسطول الفرنج الى الاسكندرية، وكان معهم من الخيل الف وخمسة الف فرس، وفي الاسطول ثلاثون ألف مقاتل في مائتي شيني، ومعهم آلات الحرب والحصار، ومعهم أربعون مركبا اخرى تحمل الازواد، وفيها من الرجال والغلمان تنمة خمسين الف رجل، وكشفوا المسلمين عن البر، وطلعوا فضربوا خيامهم وكانت ثلاثمائة خيمة، وحاصروا الاسكندرية أياما، ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل وكبسوا الفرنج على غفلة فأفنوهم قتلا وأسرأ، وغنموا جميع ما أحضره، وغنموا بعض المراكب واحرقوا بعض المراكب الباقية.....

الثامن: فيما جرى بعد موته.

قال ابن كثير رحمه الله : لما مات العاضد، استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردها لهم، وأجرى عليهم الارزاق والنفقات الهنية عوضا عما فاتهم من

الخلافة، واستعرض حواصل القصرين، فوجد فيهما من الحواصل والامتعة والآلات والثياب والملابس شيئا كثيرا باهرا، وأمرا هائلا، فمن ذلك سبعمائة يتيمة من الجواهر وقضيب زمرد طوله اكثر من شبر وسمكه نحو الابهام، وجبل من ياقوت، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، وطبل للقولنج، فاتفق أن بعض أمراء الاكراد اخذه في يده، ولم يدر ماشأته، فلما ضرب عليه حبق فألقاه من يده فكسره فبطل أمره، وأما القضيب الزمرد فان السلطان كسره ثلاث فلق فقسمه بين نسائه، وقسم بين الامراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوتت والذهب والاثاث وغير ذلك، واستمر البيع فيما كان هنالك من الاثاث والامتعة نحو من عشر سنين، وأرسل الى الخليفة ببغداد هدايا عظيمة سنية، وكذلك الى الملك العادل نور الدين، وأرسل إليه جانبا كبيرا صالحا، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واجد وثلاثون مثقالا، والاخرى ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونها، مع لآلئ كثيرة وستون ألف دينار وعطر لم يسمع بمثله، ووجد في القصر أيضا خزانة كنب ليس في دار الاسلام مثلها تشتمل على نحو الف الف مجلد، ومن عجائب ذلك انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري<sup>(١٤)</sup>.

وقال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبا من مائة وعشرين الف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، وأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قال: وقسم القصر الشمالي بين الامراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في قصر عظيم على الخليج، الذي يقال له اللؤلؤة، الذي فيه بستان الكافوري، وسكن أكثر الامراء في دور من كان ينتمي الى الفاطميين، وصار لايلقى أحد من الاتراك أحد من أولئك الذين كانوا بها من الاكابر الا شلحوه ثيابه ونهبوا داره حتى تمزق كثير منهم في البلاد وتفرقوا شدر مذر، وصاروا أيادي سبأ.

وقال ابن أبي طي: ولم يوجد في القصر من المال كثير، لان العاضد قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات العديدة، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، فانفذه السلطان الى بغداد.

وجعل السلطان أهل العاضد في موضع خارج القصر، وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجوارى والعبيد، والعدة والعديد والطريف والتلبد، فأطلق من كان منهم حراً، وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوب وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتوا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريباً من العاضد، يجلس معه ويحدثه، عمل دعوة لشمس الدولة ابن أيوب أخي السلطان، بعد القبض على القصر وأخذ مافيه، وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم، قال: نعم طلبني العاضد يوماً

وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليها أقيية مثل أقييتكم وقلانس مثل قلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ماهذا الزي، الذي مارأيناها قط؟ قال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا.

وفي تاريخ الدولتين: أخبرني أبو الفتوح أن السلطان جعل أهل العاضد في دار برجوان، في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وأبعدوا عنها.

التاسع: في ذكر كتاب كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين أبي المضاء:

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الائمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالى الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد، بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا، والخلافة إذا ذكرها أهل الخلاف لم يجروا عليها صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الختوف، ونشرت أقلام الطبأ حروف رؤوسهم نثر الاقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مختق، وقطع دابرههم، ووعظ آتيهم غابرههم، ورغمت أنوفهم ومنابرههم، وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس

السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير اليهم بنائم، ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر إلى أن يشكر مانصح، ويقلد مافتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه وإن نزع، وتأتيه التشريفات الشريفة، وتواصل إليه امداد التقدّمات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل عروته بما وصل من عروة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسل اليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها، وجرّد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجعة من سحائبها، ووعد آماله الوثائقه بجواب كتابها، وأنقض لا يصال ملطفاته، وتنجز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالامر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الاعظم، املا انه يعود اليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه.....»

### ذكر ماجريات نور الدين:

منها أن نور الدين استدعى ابن أخيه صاحب الموصل، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقه فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره وخرج الى عرقة ونازلها وقاتلها أياما حتى فتحها واحتوى على ما فيها كلها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

وقال ابن الأثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الافرنج

من اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجارة، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمرور لاطائل تحتها، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وأخرب ريبضه، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فاخذهما وكذلك غيرهما، ونهب وخرّب وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقه، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثلما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين وتجدد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم.

ومنها أن نور الدين أمر في هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته وبعدت بلاده، وكانت من حد النوبة الى باب همدان لايتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فيلّي أن يصله الخبر ويسير إليهم قد بلغوا الغرض، فحيثئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده واجرى الجرايات لها ولميرتها، فوجد بها راحة كبيرة، كانت الاخبار تأتيه لوقتها، لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوا لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو فيها في ساعته فتنتقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه، فأنحفظت الثغور بذلك.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين باسقاط المكوس

والضرائب عن أهل مصر والقاهرة، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر من هذه السنة، والذي اشتملت عليه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار.

وفي تاريخ الدولتين: قرئت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة في التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين، فهو كان الأمر، وذلك المباشر.

### ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة بلاد الافرنج في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، ثم عزم على محاصرة الكرك، وكتب الى صلاح الدين أن يلاقيه بالعساكر المنصورة الى بلاد الكرك ليجمعها هناك على المصالح فيما يعود نفعه على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الامر غائلة يزول بها ما حصل له من التمكين، ولكن ركب في جيشه من الديار المصرية ليقصد امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كثر راجعا معتلا بقلعة الظهر والخوف من اختلال الديار المصرية إذا بعد منها، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين، فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول الى الديار المصرية وانتزاعها من يد صلاح الدين وتولية غيره فيها، ولما بلغ هذا الخبر الى صلاح الدين ضاق ذرعه بذلك، وذكره بحضرة الامراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر فقال: والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه، فشمته الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ما أقول لك، والله ما هاهنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الارض بين يديه، ولو كتب الي ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف

والذهاب، فلما خلا بابنه قال: أمالك عقل، تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء، ويقول ابن أخيك مثل هذا الكلام، وتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين وجه أهم عنده من قصدك وقتالك، ولكن ابعث إليه وترقق له، وتواضع له، وقل: أي حاجة إلى مجيء مولانا، ابعث الي بنجاب أجيء معه الى بين يديك، فانك اذا فعلت هذا تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالى، ففعل صلاح الدين ذلك، وكان كما قال نجم الدين أيوب: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الاحزاب ٣٨].

وقال العماد: وكان صلاح الدين واعدته نور الدين أن يجتمعا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم، فلقى في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد الى القاهرة في النصف من ربيع الاول.

وفي تاريخ بيبرس: تجهز صلاح الدين من مصر الى الكرك، وكان قد قدر مع نور الدين ان يخرج من دمشق ويجمعا على غزو الافرنج، فسبق صلاح الدين، وخرج نور الدين من دمشق، فأوجس صلاح الدين في نفسه خيفة منه أن يعزله عن مصر ويوليها غيره، فرجع عائدا وقد بقي بينه وبين الكرك مسافة قريبة، وأرسل الى نور الدين رسولا وأصحبه هدايا كثيرة، وتحفا جليلة، وكتب اليه يعتذر بأن والده ضعيف، وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكاري، فلاطفه نور الدين وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الدين: حفظ مصر عندنا أهم من غيرها، وفطن لما قصده برجعته، وعز ذلك عليه في باطنه.

وقال ابن الأثير: لما نصح نجم الدين ولده صلاح الدين وأشار عليه بأن يرسل رسولا الى نور الدين يستعطفه، فأرسل إليه بذلك، عدل نور الدين عن قصده، وكان من جملة ما قال نجم الدين لولده صلاح الدين: الايام تندرج، والله كل وقت في شان، وكان الامر كما قال، توفي نور

الدين، ولم يقصد صلاح الدين، ولا أزاله، وكان هذا الرأي من نجم الدين من أحسن الآراء وأجودها.

## فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة:

### ذكر ماجريات نور الدين:

منها: ان نور الدين برز الى الافرنج وكانوا قد اجتمعوا بالشام لقصد مدينة زرا، فوصلوا الى سمكين، فهربوا من نور الدين الى الغور، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث نور الدين سرية إلى طبرية فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا، ورجعت الفرنج خائنين.

ومنها: أن نور الدين فتح في هذه السنة مرعش في ذي القعدة، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها.

ومنها: أن كلب الروم اللعين خرج في جنوده الشياطين، فقصد الغارة على ناحية زرا من حوران، ونزلوا بقرية تعرف سمكين، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار، ثم إلى السواد، ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين عشترا فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتنموا خلوها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان حتى عبرت السرية، ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زرا.

قال العماد: وكنت راكباً في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي:  
كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة منها:

عقدت بنصرك راية الايمان  
وبدت لعصرك آية الفرسان  
يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ  
صيد الليوث وفارس الفرسان  
ياسالب التيجان من أربابها  
حزت الفخار على ذوي التيجان  
محمود المحمود ما بين السورى  
في كل اقليم بكم كل لسان  
يا واحد في الفضل غير مشارك  
اقسمت مالك في البسيطة من ثان

ومنها:

وجلوت نور الدين ظلمة ظلمهم  
لما أتيت بواضح البرهان  
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم  
والرأي قبل شجاعة الشجعان  
أصبحت للاسلام ركنائنا  
والكفر منك مضعع الاركان

وهي قصيدة طويلة مدح فيها أمراءه الحاضرين للجهاد معه.

ومنها أن نور الدين سار قاصدا جانب الشمال، فسار إلى بعلبك،  
ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل في كل منها من المصالح ماوجب،  
وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم، وكان العماد معه، ووصل إلى  
مرعش، وكان الزمان في أطيب فصوله، وهو زمن المشمش، وكتب العماد  
إلى صديق له بدمشق:

كتابي فديتك من مرعش  
وخوف نوائبها من مرعشي

ومامر في طرفها مبصر  
صحيح النواظر الاغشي  
وما حل في ارضها آمن  
من الضر والضيم الاخشي  
ترنحني نشوات الغرام  
كأنني من كاسه متشي  
اسر وأعلن بريح الجوى  
فقلبي يسر ودمعني يشي  
بذلت لكم مهجتي رشوة  
فحاكم حاكم مرتشي  
وكيف يجد الكرى مغرم  
بنار الغرام حشاه حشي  
بمرعش أبغي وبلوطها  
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة، ونمى حديثها الى نور الدين، فاستشديها فأشدتها إياه ونحن سائرون في واد كثير الأشجار وزدتها بيتين بدهتها في الحال:  
وبالملك العادل استأنست  
نجاحامني كل مستوحش  
ومافي الانام كريم سواه  
فإن كنت تنكر ذافتش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه واقصرا، عازما على حربه وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطيه وسيواس وغيرهما من تلك البلاد، قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده،

وأخرجه عنها طريدا، فسار إلى نور الدين مستنجيرا به وملتجئا إلى ظله، فأكرم نزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك، ووعدته النصر، والسعي في رد ملكه إليه، وأرسل إلى قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ماغلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسوم وبهسنا ومرعش، ومرزبان فملكها ومايينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها، خوفا وفرقا، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فأجابته إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين: إنني أريد منك أمورا وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدد اسلامك على يد رسولي، حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لأعتقدك مؤمنا، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تسيره، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فاما ان تكون تنجدي بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج، واما ان تجاهد من يجاورك من الروم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث ان تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ابن أخي، وذكر امورا غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ماطلب، أنا أجدد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح، وعاد نور الدين، ونزل عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى ان مات نور الدين، فرحل العسكر وعاد قليج أرسلان وملكها.

ومنها أن مليح بن لاون، مقدم بلاد الارمن التجأ إلى نور الدين، وتقوى به على الروم والارمن، وكانت الدروب تحت اذنة والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح

ابن لاون فكسرهم وقتل وأسر، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيرا، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشهرزوري بالأسرى والهدايا الى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة، ومافتح من البلاد.

ومنها أنه وصل شهاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع نور الدين بدرج هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب الى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديما من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين احياء ذلك الرسم في حقه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما، وكان مراده رحمه الله ان يستوهب ببغداد على شاطيء دجلة ارضا يبني عليها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين، فعاقه امر القدر عن قدرته على الأمر.

ومنها ان نور الدين أرسل الى صلاح الدين الموفق خالد القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلك لانه استقل الهدية التي ارسل بها إليه من خزائن العاضد، ومقصوده ان يقرر له على الديار المصرية خراج يحمل اليه كل سنة.

### ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها: أن صلاح الدين بعث الى نور الدين هدية منها: فيل وحمارة عتابي، فبعث بها نور الدين الى بغداد، وخرج الناس للقاءها، وعجبوا من خلقة الحمارة.

وقال العماد: خرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحجارة العتائية، والدخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر.

قال: ووصل ذلك الينا ونحن بحلب بالميدان الاخضر، وأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين هدية الى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحجارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

ومنها أن صلاح الدين نزل في هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرها من الحصون، فبرح بها، وفرق عنها عربها وخرب عمارتها، وبعث سراياه على أعمالها، وأرسل كتابا بذلك الى نور الدين.

وقال ابن الأثير وابن شداد: هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، فخرج صلاح الدين في أثناء السنة فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها، فلم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة، وحصل ثواب القصد.

وفي المرآة: وفي هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل، وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدق بهال عظيم، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكره، فحصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين، وقتل البعض وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب كتابا الى نور الدين يخبره بما جرى من العربان، وأنه لم يبق منهم أحد، فإنهم كانوا آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الاسلام،

ثم عاد صلاح الدين الى مصر، وعاد نور الدين من الموصل وقطع  
الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه.

### ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف بن  
أيوب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو أبو الشكر أيوب بن شادي، والد الملوك بني أيوب، الكردي  
الزرزاني، وهم خيار الأكراد من بلاد دوين، بشمال بلاد أذربيجان، مما  
يلي الكرج، ومنهم من يقول: أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب،  
وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر بني  
أمية، وهذا ليس بصحيح، والذي عليه الجمهور أنه لا يعرف بعد شادي  
أحد في نسبهم، والذي نسب الى بني أمية ادعاء هو الملك أبو الفداء  
اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي، ويعرف بابن سيف الاسلام،  
وقد ملك اليمن بعد أبيه فتعاضم في نفسه، وادعى الخلافة، وتلقب  
بالامام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين، وزعم انه أموي،  
ومدحه الشعراء وأطروه، ولهجوا بذلك، وقال هو في ذلك ايضا.

وإني أنا الهادي الخليفة والذي

أدوس رقاب الغلب بالضم الجرد

ولا بد من بغداد أطوي ربوعها

وأنشره ————— أنشر السامرة البرد

وأنصب أعلامي على شرفاتها

وأحيي بها ما كان أسسه جدي

ويخطب لي فيها على كل منبر

وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا له أصل يعتمد عليه ولا مستند يستند إليه.

قال ابن أبي طي: لا يعرف في نسب نجم الدين أكثر من والده شادي، وحدثني أبي قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول شادي بن مروان، وسمعت أنا من يقول: شادي بن مروان بن يعقوب.

قال: وأجمع الجماعة من آل أيوب ان دعوى ابن سيف الاسلام أنهم من بني مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية كذب، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شادي.

قال: وكذلك أخبرني السلطان الملك الظاهر، قال: وصحة دليل ذلك أني وقفت على كتاب وقف رباط النجمي بدمشق ولم يزد فيه على نجم الدين أبي سعيد أيوب بن شادي العادلي، والمقصود أن الأمير نجم الدين والأمير أسد الدين شيركوه كانا أخوين، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين، ولدا بأرض الموصل.

وقال ابن أبي طي في تاريخه الكبير: كان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان، وقيل انه ولد بجبل جور وربي في الموصل، ومولد أبيه شادي في بلد دوين.

الثاني: في بيان ابتداء أمره وانتسابه واتصاله بالدولة، وهو أن أباه شادي كان من أعيان أهل دوين وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أطرف الناس وألطفهم، وكان بينه وبين شادي أخوة أكيدة، فجرت لبهروز قضية في دوين، فخرج منها حياء، وذلك انه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذها صاحبها فخصاه،

فلما جرى له ذلك لم يقدر على الإقامة، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية وهو مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لاولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الامور، فتقدم عنده وفوض إليه أموره، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فراه السلطان يوما مع اولاده فانكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته، ثم صار يسيره الى السلطان في الاشغال، فخف على قلبه فلعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده، واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه، وسلم إليه أولاده، وأرصده لمهامه، وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد مآصار إليه من النعمة وليقاسمه ماخوله الله تعالى، وليعلم أنه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور الى بغداد واليا ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد، يسرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه نجم الدين أيوب، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم إن شيركوه رأى يوما امرأة تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أنا داخلة من باب القلعة فتعرض لي الاسفهلار، فقام شيركوه وتناول حربه الاسفهلار وضربه بها فقتله فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وعرف بهروز بذلك، فوصل جوابه: لا بيكما علي حق، وبينني وبينه مودة متأكدة ما يمكنني ان اكا فيكما بسيئة، ولكنني اشتهي ان تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي وتطلبيا رزقكما، فلما وقفا عليه خرجا ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود بن زنكي، واقطعها اقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك - كما ذكرنا - استخلف بها نجم الدين أيوب، ثم بعد مدة انتقل الى دمشق،

وأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، ثم لم يزل معه في السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده، فصار لا يقطع أمرا دونه، ثم إن نور الدين أرسل أخاه شيركوه إلى الديار المصرية ثلاث مرات - كما ذكرناه - وكان معه في كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

ولما جرى ماجرى من أمور المصريين، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف، وصار أمر الديار المصرية إليه - كما ذكرناه مفصلا - طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين فأرسله إليه مع أهله وحاشيته - كما ذكرناه.

وقال العماد الكاتب: لما دخل فصل النيروز استأذن نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد ثم سار فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله، ووصف ذلك عمارة اليمني في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله:

صحت به مصر وكان قلبه  
تشكو وسقام الم تغن بطبيب  
عجب المعجزة أتت في عصره  
والدهر ولاد لكل عجيب  
رد الاله به قضية يوسف  
نسقا على ضرب من التقريب  
جاءته أخوته ووالده إلى  
مصر على التدريج والترتيب  
فأسعد بأكرم قادم وبدولة  
قد ساعدتك رياحها بهبوب

وفي تاريخ الدولتين: وكان بهروز المذكور، أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر نجم الدين في ولاية تكريت وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود.

ثم إن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود طمع في أخذ بغداد، ووصل الخبر إلى قراجا الساقى وهو أتابك السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، فانهزم زنكي، وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ماكان معه في عسكره، وجاء إلى تكريت وبه عدة جراحات، وعلم مكانه الامير نجم الدين وأخوه شيركوه، فأحسنا إليه وداويا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر، حتى أنها أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه من أمتعته، فكان زنكي يرى لنجم الدين أيوب هذه اليد، ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ماذكرنا تلقاه زنكي بالرحب والسعة واحترمه احتراماً عظيماً.

وقال صاحب تاريخ الدولتين: وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها، فاتفق ان اسد الدين شيركوه نزل يوماً لبعض شأنه، ثم عاد الى القلعة، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً بصرانياً، فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد الى القلعة، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأخذ النصراني برجله فألقاه من القلعة، وبلغ ذلك الى بهروز وحصل عنده من خوفه جرأة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن

أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منه أمر تخشى عاقبته، ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، فخرجا واتصلا به كما ذكرنا، وقيل ان أسد الدين خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، ثم إنه جرى بين أسد الدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر ان يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتاك، وجعلها عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام، وشهدا معه حروب الكفار وقتال الافرنج لعنهم الله، وكان لاسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفعلة الغراء.

وقال ابن أبي طي: حدثني أبي عن سعد الدولة أبي الميامن عن حسام الدين سنقر غلام نجم الدين أبي طالب، وكان في خدمة نجم الدين أيوب، قال: لما دخل نجم الدين أيوب الديار المصرية إلى ولده صلاح الدين كنت معه في خدمته، وكانا قد اجتمعنا في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين إذ تقدم نصراني كان في خدمة نجم الدين، فقبل الأرض بين يديهما وقال لنجم الدين: يامولانا هذا تأويل مقالتي لك حين ولد هذا السلطان - يعني صلاح الدين - فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله، ثم التفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أني ليلة رزقت هذا الولد - يعني السلطان صلاح الدين - أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب أخي شيركوه من قتله ذلك النصراني، وكنت قد ألفت هذه القلعة وصارت لي كالوطن، فثقل علي الخروج منها جدا، وفي ذلك الوقت جاءني البشير

بولادة هذا - يعني صلاح الدين - فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ،  
وخرجنا من القلعة وأنا لاسميته ولا التفت إليه، وكان هذا النصراني معي  
كاتبا لي، فلما رأى منازل بي قال: يامولاي أي شيء لهذا المولود من  
الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لا يضر ولا ينفع، وهذا الذي جرى  
عليك قضاء من الله تعالى، فما يدريك أن هذا الطفل يكون سببا  
لوصول الخيرات إليك ويكون هو ملكا عظيم الصيت، جليل المقدار،  
فعطفتني كلامه عليه، وها هو قد جرى ما قال لي، فتعجب الحاضرون من  
ذلك، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه، ولعمارة اليميني في نجم  
الدين مدائح ومراثي منها:

نغر الزمان بنجم الدين مبتسم  
ووجهه بدوام العزم متسم

يقول فيها:  
أضحى بك النيل محجوجا ومعتبرا  
كأنها حلل فيه الحل والحرم

إلى ان قال:  
والناصر ابنك كافي كل معضلة  
إذا الحوادث لم تكشف لها غم

الثالث: في سيرته.

وكان شجاعا باسلاً أميناً، خيرا محسنا، ناصحا عظيما في أنفس الناس  
بالخير والدين وحسن السياسة، وكان لا يأتي أحد من أهل العلم والدين  
من مدينة الا انفذ إليه، وقد ذكره العماد الكاتب وذكر من دينه وعفته  
ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة.

وقال ابن خلكان: وكان نجم الدين رجلا مباركا كثير الصلاح مائلا

للخير، حسن النية، جميل الطوية، وظهرت ثمرة بركته في أولاده، وله خانقاه بدمشق تعرف بالنجمية، وخانقاه بالديار المصرية ومسجد وقناة خارج باب النصر من القاهرة، وخانقاه أخرى لطيفة ببلدك بناها حين كان نائباً بها عن عماد الدين زنكي.

وفي المرأة: وكان نجم الدين رجلاً عاقلاً حازماً شجاعاً حليماً رحيماً، جواداً، عاطفاً على الفقراء والمساكين، محباً للصالحين، قليل الكلام جداً، لا يتكلم إلا عن ضرورة.

ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين ان يكون هو السلطان، فقال: أنت أولى، وكان يلعب بالكرة دائماً.

وقال القاضي ابن شداد: وكان شديد الركض بالخيال، يلعب بالكرة، ومن يراه يقول: ما يموت إلا من وقوعه من ظهر الفرس.

#### الرابع: في وفاته

خرج نجم الدين يوماً من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبت به فرسه، فألقاه في وسط المحجة، وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة، وحمل إلى داره، وبقي متألماً إلى أن توفي يوم الأربعاء سابع عشرين الشهر المذكور، ويقال في الثامن والعشرين منه.

وفي تاريخ بيبرس: وكان سبب وفاته أنه تقنطر عن فرسه، فحمل إلى داره فمات بها.

وفي تاريخ الدولتين: وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه من الفرس، وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان ولده صلاح الدين غائباً عنه في بلاد الكرك والشوبك على الغزاة.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين أبيه، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه، ماعظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت بغيتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبرة، فياله فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء، وتحطفته يد الردى في غيبيتي، هبني حضرت فكنت ماذا أصنع.

قال: فدفن نجم الدين الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقل بعد سنين الى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الاصفهاني وزير الموصل، وكان جمال الدين المذكور مواخيا لاسد الدين شيركوه كما ذكرنا.

وفي تاريخ القاضي الفاضل: وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة يخبر بوصول تابوت الامير نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بترتبتها مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

الخامس: فيما يتعلق به.

خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الاسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون، وقال عمارة اليميني يرثيه:

صفوا الحياة وإن طال المدى كدر  
وحادث الدهر لا يبقى ولا يذر  
وما يزال لسان الدهر ينذرنا  
لو أثرت عندنا الآثار والنذر  
كم شامخ العز ذاق الموت من يدها  
ما أضعف القدر أن ألوى القدر  
أودى علي وعثمان نخله  
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر  
ومن أراد التأسى في مصيبتيه  
فللورى في رسول الله معتبر  
لا قدست ليلة كادت مصيبتها  
الأكباد حزننا على أيوب تنفطر  
كأنها صور الله الكمال به  
شخصا ويوسف منه السمع والبصر  
إذا الليالي تجافت عن حشاشته  
فالجرح مندمل والذنب مغتفر  
يا ناصر الحق والايام خاذلة  
إن الغريب بغير الدمع يتنصر  
مامات أيوب الأبعد معجزة  
في الحق لم يؤتاه من جنسه بشر  
مضى حميد من الدنيا وليس له  
في رتبة أرب منها ولا وطر  
صلى الله على نجم اضاء لنا  
من نسله النيران والشمس والقمر

وهي قصيدة طويلة، وله قصيدة أخرى في مرثيته وأولها هو قوله:  
هي الصدمة الأولى فمن بان صبره  
على هول ملقاها يضاعف أجره  
أذم صباح الأربعاء فإنه  
تبسم عن ثغر المنية فجره

